

كتاب النية والإخلاص والصدق

وهو الكتاب السابع من ربيع المنجيات من كتاب إحياء علوم
الدين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

نحمد الله حمد الشاكرين، ونؤمن به إيمان الموقنين، ونقرّ بوحدانيته إقرار الصادقين، ونشهد أن لا إله إلا الله رب العالمين، وخالق السموات والأرضين، ومكلف الجن والإنس والملائكة المقربين أن يعبدوه عبادة المخلصين، فقال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [البينة: ٥] فما لله إلا الدين الخالص المتين، فإنه أغنى الأغنياء عن شركة المشاركين، والصلاة على نبيه محمد سيد المرسلين وعلى جميع النبيين وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين.

أما بعد : فقد انكشف لأرباب القلوب ببصيرة الإيمان وأنوار القرآن أن لا وصول إلى السعادة إلا بالعلم والعبادة، فالناس كلهم هلكى إلا العالمون؛ والعالمون كلهم هلكى إلا العاملون، والعالمون كلهم هلكى إلا المخلصون، والمخلصون على خطر عظيم. فالعمل بغير نية عناء، والنية بغير إخلاص رياء، وهو للنفاق كفاء، ومع العصيان سواء، والإخلاص من غير صدق وتحقيق هباء، وقد قال الله تعالى في كل عمل كان بإرادة غير الله مشوباً مغموراً ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣] وليت شعري كيف يصحح نيته من لا يعرف حقيقة النية؟ أو كيف يخلص من صحح النية إذا لم يعرف حقيقة الإخلاص؟ أو كيف تطالب المخلص نفسه بالصدق إذا لم يتحقق معناه؟ فالوظيفة الأولى على كل عبد أراد طاعة الله تعالى أن يتعلم النية أولاً لتحصل المعرفة، ثم يصححها بالعمل بعد فهم حقيقة الصدق والإخلاص للذين هما وسيلتا العبد إلى النجاة والخلاص.

ونحن نذكر معاني الصدق والإخلاص في ثلاثة أبواب :

الباب الأول : في حقيقة النية ومعناها.

الباب الثاني : في الإخلاص وحقائقه.

الباب الثالث : في الصدق وحقائقه.

الباب الأول في حقيقته النية ومعناها

وفيه بيان فضيلة النية، وبيان حقيقة النية، وبيان كون النية خيرًا من العمل، وبيان تفضيل الأعمال المتعلقة بالنفس، وبيان خروج النية عن الاختيار.
بيان فضيلة النية:

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ [الأنعام: ٥٢] والمراد بتلك الإرادة هي النية. وقال ﷺ: «إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ وَلِكُلِّ أَمْرٍ إِيَّ مَا نَوَى فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ فَهَجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى دُنْيَا يُصِيبُهَا أَوْ امْرَأَةً يَتَكَحَّهَا فَهَجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ»^(١)، وقال ﷺ: «أَكْثَرُ شَهَادَةِ أُمَّتِي أَصْحَابُ الْفَرْشِ وَرُبَّ قَتِيلٍ بَيْنَ الصَّفَيْنِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِنِيَّتِهِ»^(٢)، وقال تعالى: ﴿إِنْ يُرِيدَ إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا﴾ [النساء: ٣٥] فجعل النية سبب التوفيق.

وقال ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يَنْظُرُ إِلَى صُورِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ وَإِنَّمَا يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ»^(٣)، وإنما نظر إلى القلوب لأنها مظنة النية: وقال ﷺ: «إِنَّ الْعَبْدَ لَيَعْمَلُ أَعْمَالًا حَسَنَةً فَتَضَعُهَا الْمَلَائِكَةُ فِي صُحُفٍ مُخْتَمَةٍ فُتَلْقَى بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ تَعَالَى فَيَقُولُ أَلْقُوا هَذِهِ الصَّحِيفَةَ فَإِنَّهُ لَمْ يَرِدْ بِمَا فِيهَا وَجْهِي ثُمَّ يُتَادِي الْمَلَائِكَةَ أَكْثَرُوا لَهُ كَذَا وَكَذَا فَيَقُولُونَ يَا رَبَّنَا إِنَّهُ لَمْ يَعْمَلْ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى إِنَّهُ نَوَاهُ»^(٤) وقال ﷺ: «النَّاسُ أَرْبَعَةٌ: رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عِلْمًا وَمَالًا فَهُوَ يَعْمَلُ بِعِلْمِهِ فِي مَالِهِ فَيَقُولُ رَجُلٌ لَوْ آتَانِي اللَّهُ تَعَالَى مِثْلَ مَا آتَاهُ لَعَمِلْتُ كَمَا يَعْمَلُ فَهُمَا فِي الْأَجْرِ سَوَاءٌ، وَرَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ تَعَالَى مَالًا وَلَمْ يُؤْتِهِ عِلْمًا فَهُوَ يَتَخَبَّطُ بِجَهْلِهِ فِي مَالِهِ فَيَقُولُ رَجُلٌ لَوْ آتَانِي اللَّهُ مِثْلَ مَا آتَاهُ عَمِلْتُ كَمَا يَعْمَلُ فَهُمَا فِي الْوِزْرِ سَوَاءٌ»^(٥)، ألا ترى كيف شرکه بالنية في محاسن عمله ومساوئته.

وكذلك في حديث أنس بن مالك: لما خرج رسول الله ﷺ في غزوة تبوك قال: «إِنَّ

(١) صحيح: حديث «إنما الأعمال بالنيات». متفق عليه من حديث عمر وقد تقدم.

(٢) ضعيف: حديث «أكثر شهداء أمتي أصحاب الفرش ورب قتيل بين الصفين الله أعلم بنيتهم». أخرجه أحمد من حديث ابن مسعود وفيه عبد الله بن لهيعة. [أحمد: ٣٧٦٣، وانظر ضعيف الجامع: ١٤٠٤]

(٣) صحيح: حديث «إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم وإنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم». أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة وقد تقدم.

(٤) ضعيف جدًا: حديث «إن العبد ليعمل أعمالًا حسنة». أخرجه الدارقطني من حديث أنس بإسناد حسن، [بنحوه، انظر ضعيف الجامع: ٦٦٠].

(٥) حديث «الناس أربعة: رجل آتاه الله عز وجل علما ومالا فهو يعمل بعلمه في ماله». أخرجه ابن ماجه من حديث أبي كبشة الأثماري بسند جيد بلفظ «مثل هذه الأمة كمثل أربعة نفر... الحديث» وقد تقدم ورواه الترمذي بزيادة وفيه «وإنما الدنيا لأربعة نفر... الحديث» وقال حسن صحيح.

بِالْمَدِينَةِ أَقْوَامًا مَا قَطَعْنَا وَاذْيَا وَلَا وَطِنًا مَوْطِنًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا أَنْفُقًا نَفَقَةً وَلَا أَصَابِنًا مَحْمَصَةً إِلَّا شَرُّ كُونًا فِي ذَلِكَ وَهُمْ بِالْمَدِينَةِ».

قالوا: وكيف ذلك يا رسول الله؟ وليسوا معنا؟ قال: «حَبَسَهُمُ الْعُدْرُ فُشِرْ كُوا بِحُسْنِ النِّيَّةِ»

(١)

وفي حديث ابن مسعود: «مَنْ هَاجَرَ يَبْتَغِي شَيْعًا فَهُوَ لَهُ، فَهَاجَرَ رَجُلٌ فَتَزَوَّجَ امْرَأَةً مِنْهَا فَكَانَ يُسَمَّى مُهَاجِرًا أُمَّ قَيْسٍ» (٢). وكذلك جاء في الخبر: «إِنَّ رَجُلًا قُتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَكَانَ يُدْعَى قَتِيلَ الْحِمَارِ» (٣)، لأنه قاتل رجلاً ليأخذ سلبه وحماره فقتل على ذلك فأضيف إلى نيته.

وفي حديث عبادة عن النبي ﷺ: «مَنْ غَزَا وَهُوَ لَا يَنْوِي إِلَّا عِقَالًا فَلَهُ مَا نَوَى» (٤)، وقال أبي: استعنت رجلاً يغزو معي فقال: لا حتى تجعل لي جعلاً، فجعلت له، فذكرت ذلك للنبي ﷺ فقال: «لَيْسَ لَهُ مِنْ دُنْيَاهُ وَأَخْرَجْتَهُ إِلَّا مَا جَعَلْتَ لَهُ» (٥).

وروي في الإسرائيليات، أن رجلاً مرَّ بكشبان من رمل في مجاعة فقال في نفسه: لو كان هذا الرمل طعاماً لقسمته بين الناس، فأوحى الله تعالى إلى نبيهم أن قل له إن الله تعالى قد قبل صدقتك وقد شكر حسن نيتك وأعطاك ثواب ما لو كان طعاماً فتصدقت به.

وقد ورد في أخبار كثيرة: «مَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ وَلَمْ يَعْمَلْهَا كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةٌ» (٦).

وفي حديث عبد الله بن عمرو: «مَنْ كَانَتْ الدُّنْيَا نِيَّتَهُ جَعَلَ اللَّهُ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ وَفَارَقَهَا أَرْغَبَ مَا يَكُونُ فِيهَا وَمَنْ تَكُنِ الآخِرَةُ نِيَّتَهُ جَعَلَ اللَّهُ تَعَالَى غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ وَجَمَعَ عَلَيْهِ ضَيْعَتَهُ وَفَارَقَهَا أَزْهَدَ مَا يَكُونُ فِيهَا» (٧).

وفي حديث أم سلمة: أن النبي ﷺ ذكر جيشاً يخسف بهم البداء فقلت: يا رسول الله

(١) صحيح: حديث أنس «إن بالمدينة أقواماً ما قطعنا وادياً ولا وطننا موطناً يغيب الكفار». أخرجه البخاري مختصراً وأبو داود، [البخاري: ٢٨٣٩].

(٢) حديث ابن مسعود «من هاجر يبتغي شيئاً فهو له». أخرجه الطبراني بإسناد جيد.

(٣) حديث «إن رجلاً قتل في سبيل الله فكان يدعى قتيل الحمار». لم أجد له أصلاً في الموصولات، وإنما رواه أبو إسحاق الفراوي في السنن من وجه مرسل.

(٤) حديث «من غزا وهو لا ينوي إلا عقالاً فله ما نوى». أخرجه النسائي من حديث عبادة بن الصامت وتقدم غير مرة.

(٥) صحيح: حديث أبي: استعنت رجلاً يغزو معي فقال لا حتى تجعل لي جعلاً فجعلت له فذكرت ذلك للنبي ﷺ فقال: «ليس له من دنياه وأخرته إلا ما جعلت له». أخرجه الطبراني في مسند الشاميين ولأبي داود من حديث يعلى بن أمية أنه استأجر أجييراً للغزو وسمي له ثلاثة دنائير فقال النبي ﷺ «ما أجد له في غزوته هذه في الدنيا والآخرة إلا دنائيره التي سمي»، [أبو داود: ٢٥٢٧، وانظر صحيح الجامع: ٥٥١١].

(٦) صحيح: حديث «من هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة». متفق عليه وقد تقدم.

(٧) صحيح: حديث عبد الله بن عمرو «من كانت الدنيا نيته جعل الله فقره». أخرجه ابن ماجه من حديث زيد بن ثابت بإسناد جيد دون قوله: «وفارقها أرغب ما يكون فيها» ودون قوله: «وفارقها أزهد ما يكون فيها» وفيه زيادة ولم أجد من حديث عبد الله بن عمرو، [ابن ماجه: ٤١٠٥، وانظر صحيح الترغيب: ٣١٦٨].

يكون فيهم المكره والأجير فقال: «يَحْشُرُونَ عَلَيَّ نِيَّاتِهِمْ»^(١)، وقال عمر رضي الله عنه: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّمَا يُقْتَلُ الْمُقْتَلُونَ عَلَيَّ النَّيَاتِ»^(٢)، وقال عليه السلام: «إِذَا التَّقَى الصَّفَّانِ نَزَلَتِ الْمَلَائِكَةُ تَكْتُبُ الْخَلْقَ عَلَى مَرَاتِبِهِمْ فَلَانَ يُقَاتِلُ لِلدُّنْيَا فَلَانَ يُقَاتِلُ حَمِيَّةً فَلَانَ يُقَاتِلُ عَصَبِيَّةً أَلَا فَلَا تَقُولُوا فَلَانَ قُتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمَنْ قَاتَلَ لِتُكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ»^(٣)، وعن جابر عن رسول الله ﷺ أنه قال: «يُبْعَثُ كُلُّ عَبْدٍ عَلَيَّ مَا مَاتَ عَلَيْهِ»^(٤)، وفي حديث الأحنف عن أبي بكرة: «إِذَا التَّقَى الْمُسْلِمَانِ بَسَّيْفَيْهِمَا فَالْقَاتِلُ وَالْمَقْتُولُ فِي النَّارِ» قيل يا رسول الله هذا القاتل فما بال المقتول؟ قال: «لأنه أراد قتل صاحبه»^(٥). وفي حديث أبي هريرة: «مَنْ تَزَوَّجَ امْرَأَةً عَلَيَّ صَدَاقٍ وَهُوَ لَا يَنْوِي آدَاءَهُ فَهُوَ زَانٌ، وَمَنْ آدَأَ دَيْنًا وَهُوَ لَا يَنْوِي قَضَاءَهُ فَهُوَ سَارِقٌ»^(٦)، وقال ﷺ: «مَنْ تَطَيَّبَ لِلَّهِ تَعَالَى جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَرِيحُهُ أَطْيَبُ مِنَ الْمِسْكِ، وَمَنْ تَطَيَّبَ لِغَيْرِ اللَّهِ جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَرِيحُهُ أَتْنٌ مِنَ الْحَيْفَةِ»^(٧).

وأما الآثار: فقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: أفضل الأعمال أداء ما افترض الله تعالى والورع عما حرّم الله تعالى وصدق النية فيما عند الله تعالى.

وكتب سالم بن عبد الله إلى عمر بن عبد العزيز: اعلم أنّ عون الله تعالى للعبد على قدر النية فمن تمت نيته تم عون الله له وإن نقصت نقص بقدره.

وقال بعض السلف: رب عمل صغير تعظمه النية ورب عمل كبير تصغره النية. وقال داود الطائي: البر همته التقوى فلو تعلقت جميع جوارحه بالدنيا لردته نيته يوماً إلى نية سالحة وكذلك الجاهل بعكس ذلك.

(١) صحيح: حديث أم سلمة: في الجيش الذي يخسف بهم «يحشرون على نياتهم». أخرجه مسلم وأبو داود وقد تقدم.

(٢) صحيح: حديث «إنما يقتل المقتولون على النيات». أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب الإخلاص والنية من حديث عمر بإسناد ضعيف بلفظ «إنما يبعث» ورويناه في فوائد تمام بلفظ «إنما يبعث المسلمون على النيات» ولا بن ماجه من حديث أبي هريرة «إنما يبعث الناس على نياتهم» وفيه ليث بن أبي سليم مختلف فيه، [ابن ماجه: ٤٢٢٩، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه].

(٣) صحيح: حديث «إذا التقى الصفان نزلت الملائكة تكتب الخلق على مراتبهم». أخرجه ابن المبارك في الزهد موقوفاً على ابن مسعود وآخر الحديث مرفوعاً ففي الصحيحين من حديث أبي موسى «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله»، [البخاري: ٢٨١٠، مسلم: ١٩٠٤].

(٤) صحيح: حديث جابر «يبعث كل عبد على ما مات عليه». رواه مسلم، [مسلم: ٢٨٧٨].

(٥) صحيح: حديث الأحنف عن أبي بكرة «إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار». هـن علي، [البخاري: ٣١، مسلم: ٢٨٨٨].

(٦) صحيح لغيره: حديث أبي هريرة «من تزوج امرأة على صداق وهو لا ينوي آداءه فهو زان». أخرجه أحمد من حديث صهيب ورواه ابن ماجه مقتصرًا على قصة الدين، ودون ذكر: الصداق، [أحمد: ١٨٤٥٣، وانظر صحيح الترغيب: ١٨٠٦، من حديث أبي هريرة].

(٧) حديث «من تطيب لله تعالى جاء يوم القيامة وريحه أطيب من المسك، ومن تطيب لغير الله جاء يوم القيامة وريحه أتن من الحيفة». أخرجه أبو الوليد الصفاق في كتاب الصلاة من حديث إسحق بن أبي طلحة مرسلًا.

وقال الثوري: كانوا يتعلمون النية للعمل كما تتعلمون العمل. وقال بعض العلماء: اطلب النية للعمل قبل العمل، وما دمت تنوي الخير فأنت بخير. وكان بعض المريدين يطوف على العلماء يقول من يدلني على عمل لا أزال فيه عاملاً لله تعالى فأني لا أحب أن يأتي علي ساعة من ليل أو نهار إلا وأنا عامل من عمال الله، فقبل له قد وجدت حاجتك فاعمل الخير ما استطعت فإذا فترت أو تركته فهم بعمله فإن الهام بعمل الخير كعامله.

وكذلك قال بعض السلف: وإنّ نعمة الله عليكم أكثر من أن تحصوها وإنّ ذنوبكم أخفى من أن تعلموها ولكن أصبحوا توابين وأمسوا توابين يغفر لكم ما بين ذلك. وقال عيسى عليه السلام طوبى لعين نامت ولا تهتم بمعصية وانتبهت إلى غير إثم. وقال أبو هريرة: يبعثون يوم القيامة على قدر نياتهم وكان الفضيل بن عياض إذا قرأ: ﴿وَلَسَبُّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّادِقِينَ وَتَبَلَّوْا أَخْبَارَكُمْ﴾ [محمد: ٣١] يبكي ويردها ويقول إنك إن بلوتنا فضحتنا وهتكت أستاذنا. وقال الحسن: إنما خلّد أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار بالنيات. وقال أبو هريرة: مكتوب في التوراة ما أريد به وجهي فقليله كثيره، وما أريد به غيري فكثيره قليل. وقال بلال بن سعد: إنّ العبد ليقول قول مؤمن فلا يدعه الله عز وجل وقوله حتى ينظر في عمله، فإذا عمل لم يدعه الله حتى ينظر في ورعه، فإن تورّع لم يدعه حتى ينظر ماذا نوى، فإن صلحت نيته فبالحري أن يصلح ما دون ذلك فإذا عماد الأعمال النيات فالعمل مفتقر إلى النية ليصير بها خيراً، والنية في نفسها خير وإن تعذر العمل بعائق.

بيان حقيقة النية:

اعلم أنّ النية والإرادة والقصد عبارات متواردة على معنى واحد، وهو حالة وصفه للقلب يكتنفها أمران: علم، وعمل.
العلم: يقدمه لأنه أصله وشرطه.

والعمل: يتبعه لأنه ثمرته وفرعه، وذلك لأن كل عمل أعني كل حركة وسكون اختياري فإنه لا يتم إلا بثلاثة أمور: علم، وإرادة، وقدرة. لأنه لا يريد الإنسان ما لا يعلمه فلا بدّ وأن يعلم، ولا يعمل ما لم يرد فلا بدّ من إرادة. ومعنى الإرادة انبعاث القلب إلى ما يراه موافقاً للغرض إما في الحال أو في المآل، فقد خلق الإنسان بحيث يوافق بعض الأمور ويلائم غرضه، ويخالفه بعض الأمور، فيحتاج إلى جلب الملائم الموافق إلى نفسه ودفع الضارّ المنافي عن نفسه، فافتقر بالضرورة إلى معرفة وإدراك للشيء المضر والنافع حتى يجلب هذا ويهرب من هذا، فإن من لا يبصر الغذاء ولا يعرفه لا يمكنه أن يتناول، ومن لا يبصر النار لا يمكنه الهرب منها، فخلق الله الهداية والمعرفة وجعل لها أسباباً وهي الحواس الظاهرة والباطنة، وليس ذلك من غرضنا، ثم لو أبصر الغذاء وعرف أنه موافق فلا يكفيه ذلك للتناول ما لم يكن فيه ميل إليه ورغبة فيه وشهوة له باعثة عليه، إذ المريض يرى الغذاء ويعلم أنه موافق ولا يمكنه التناول لعدم

الرغبة والميل ولفقد الداعية المحركة إليه، فخلق الله تعالى له الميل والرغبة والإرادة، وأعني به نزوعاً في نفسه إليه وتوجهاً في قلبه إليه، ثم ذلك لا يكفيه فكم من مشاهد طعاماً راغب فيه يريد تناوله عاجزاً عنه لكونه زماً؟ لخلقت له القدرة والأعضاء المتحركة حتى يتم به التناول، والعضو لا يتحرك إلا بالقدرة، والقدرة تنتظر الداعية الباعثة، والداعية تنتظر العلم والمعرفة أو الظن والاعتقاد وهو أن يقوي في نفسه كون الشيء موافقاً له، فإذا جازمت المعرفة بأن الشيء موافق ولا بدّ وأن يفعل، وسمت عن معارضة باعث آخر صارف عنه انبعثت الإرادة وتحقق الميل، فإذا انبعثت الإرادة انتهضت القدرة لتحريك الأعضاء فالقدرة خادمة للإرادة والإرادة تابعة لحكم الاعتقاد والمعرفة. فالنية عبارة عن الصفة المتوسطة وهي الإرادة وانبعاث النفس بحكم الرغبة والميل إلى ما هو موافق للغرض إما في الحال وإما في المآل. فالمحرك الأول هو الغرض المطلوب وهو الباعث، والغرض الباعث هو المقصد المنوي، والانبعاث هو القصد والنية، وانتهاض القدرة لخدمة الإرادة بتحريك الأعضاء هو العمل، إلا أنّ انتهاض القدرة للعمل قد يكون بباعث واحد وقد يكون بباعثين اجتماعاً في فعل واحد، وإذا كان بباعثين فقد يكون كل واحد بحيث لو انفرد لكان ملياً بإنهاض القدرة، وقد يكون كل واحد قاصراً عنه إلا بالاجتماع؟ وقد يكون أحدهما كافياً لولا الآخر لكن الآخر انتهض عاضداً له ومعاوناً. فيخرج من هذا القسم أربعة أقسام: فلنذكر لكل واحد مثلاً واسماً.

أما الأول: فهو أن ينفرد الباعث الواحد ويتجرد، كما إذا هجم على الإنسان سبع فكلما رآه قام من موضعه، فلا مزعج له إلا غرض الهرب من السبع فإنه رأى السبع وعرفه ضاراً فانبعثت نفسه إلى الهرب ورغبت فيه، فانتهضت القدرة عاملة بمقتضى الانبعاث، فيقال: نيته الفرار من السبع لا نية له في القيام لغيره، وهذه النية تسمى خالصة ويسمى العمل بموجبها «إخلاصاً» بالإضافة إلى الغرض الباعث، ومعناه أنه خلص عن مشاركة غيره وممازجته.

وأما الثاني: فهو أن يجتمع باعثان كل واحد مستقل بإنهاض لو انفرد. ومثاله من المحسوس أن يتعاون رجلان على حمل شيء بمقدار من القوة كان كافياً في الحمل لو انفرد. ومثاله في غرضنا أن يسأله قريبه الفقير حاجة فيقضيها لفقره وقرابته، وعلم أنه لولا فقره لكان يقضيها بمجرد القرابة وأنه لولا قرابته لكان يقضيها بمجرد الفقر، وعلم ذلك من نفسه بأنه يحضره قريب غني فيرغب، في قضاء حاجته، وفقير أجنبي فيرغب أيضاً فيه. وكذلك من أمره الطبيب بترك الطعام ودخل عليه يوم عرفة فصام وهو يعلم أنه لو لم يكن يوم عرفة فكان يترك الطعام حمية، ولولا الحمية لكان يتركه لأجل أنه يوم عرفة، وقد اجتمعاً جميعاً فأقدم على الفعل وكان الباعث الثاني رفيق الأول فلنسب هذا «مرافقة للباعث».

والثالث أن لا يستقل كل واحد لو انفرد ولكن قوي مجموعهما على إنهاض القدرة. ومثاله في المحسوس أن يتعاون ضعيفان على حمل ما لا ينفرد أحدهما به. ومثاله في غرضنا

أن يقصده قريبه الغني فيطلب درهماً فلا يعطيه، ويقصده الأجنبي الفقير فيطلب درهماً فلا يعطيه، ثم يقصده القريب الفقير فيعطيه، فيكون انبعاث داعيته بمجموع الباعثين وهو القرابة والفقير. وكذلك الرجل يتصدق بين يدي الناس لغرض الثواب ولغرض الثناء، ويكون بحيث لو كان منفرداً لكان لا يبعثه مجرد قصد الثواب على العطاء، ولو كان الطالب فاسقاً لا ثواب في التصدق عليه لكان لا يبعثه مجرد الرياء على العطاء، ولو اجتمعا أورثا بمجموعهما تحريك القلب. ولنسم هذا الجنس «مشاركة».

والرابع: أن يكون أحد الباعثين مستقلاً لو انفرد بنفسه والثاني لا يستقل. ولكن لما انضاف إليه لم ينفك عن تأثير بالإعانة والتسهيل. ومثاله في المحسوس أن يعاون الضعيف الرجل القوي على الحمل، ولو انفرد القوي لاستقل ولو انفرد الضعيف لم يستقل، فإن ذلك بالجملة يسهل العمل ويؤثر في تخفيفه.

ومثاله في غرضنا أن يكون للإنسان ورد في الصلاة وعادة في الصدقات فاتفق أن حضر في وقتها جماعة من الناس، فصار الفعل أخف علة بسبب مشاهدتهم، وعلم من نفسه أنه لو كان منفرداً خالياً لم يفتر عن عمله، وعلم أن عمله لو لم يكن طاعة لم يكن مجرد الرياء يحمله عليه، فهو شوب تطرق إليه النية. ولنسم هذا الجنس «المعاونة».

فالباعث الثاني إما أن يكون رفيقاً أو شريكاً أو معيناً. وسنذكر حكمها في باب الإخلاص. والغرض الآن بيان أقسام النيات، فإن العمل تابع للباعث عليه فيكتسب الحكم منه. ولذلك قيل: «إنما الأعمال بالنيات» لأنها تابعة لا حكم لها في نفسها وإنما الحكم للمتبع. بيان سر قوله ﷺ: «نِيَّةُ الْمُؤْمِنِ خَيْرٌ مِنْ عَمَلِهِ»^(١):

اعلم أنه قد يظن أن سبب هذا الترجيح أن النية سر لا يطلع عليه إلا الله تعالى، والعمل الظاهر، والعمل السر فضل، وهذا صحيح ولكن ليس هو المراد؛ لأنه لو نوى أن يذكر الله بقلبه أو يتفكر في مصالح المسلمين فيقتضي عموم الحديث أن تكون نية التفكير خيراً من التفكير، وقد يظن أن سبب الترجيح أن النية تدوم إلى آخر العمل والأعمال لا تدوم وهو ضعيف، لأن ذلك يرجع معناه إلى أن العمل الكثير خيراً من القليل، بل ليس كذلك فإن نية أعمال الصلاة قد لا تدوم إلا في لحظات معدودة والأعمال تدوم، والعموم يقتضي أن تكون نيته خيراً من عمله. وقد يقال: إن معناه أن النية بمجرد خيرا من العمل بمجرد دون النية، وهو كذلك ولكنه بعيد أن يكون هو المراد، إذ العمل بلا نية أو على الغفلة لا خير فيه أصلاً والنية بمجرد خيرا؛ وظاهر الترجيح للمشتركين في أصل الخير، بل المعنى أن كل طاعة

(١) ضعيف: حديث «نية المؤمن خير من عمله». أخرجه الطبراني من حديث سهل بن سعد ومن حديث النواس بن سمعان، وكلاهما ضعيف، [انظر ضعيف الجامع: ٥٩٧٧].

تنتظم بنية وعمل وكانت النية من جملة الخيرات وكان العمل من جملة الخيرات ولكن النية من جملة الطاعة خير من العمل، أي لكل واحد منهما أثر في المقصود وأثر النية أكثر من أثر العمل، فمعناه: نية المؤمن من جملة طاعته خير من عمله الذي هو من جملة طاعته، والغرض أن للبعد اختيارًا في النية وفي العمل، فهما عملان والنية من الجملة خيرهما؛ فهذا معناه.

وأما سبب كونها خيرًا ومترجحة على العمل فلا يفهمه إلا من فهم مقصد الدين وطريقه ومبلغ أثر الطريق في الاتصال إلى المقصد وقاس بعض الآثار بالبعض حتى يظهر له بعد ذلك الأرجح بالإضافة إلى المقصود.

فمن قال: الخبز خير من الفاكهة، فإنما يعني به أنه خير بالإضافة إلى مقصود القوت والاعتناء، ولا يفهم ذلك إلا من فهم أنّ للغذاء مقصدًا وهو الصحة والبقاء، وأنّ الأغذية مختلفة الآثار فيها، وفهم أثر كل واحد وقاس بعضها بالبعض فالطاعات غذاء للقلوب، والمقصود شفاؤها وبقاؤها وسلامتها في الآخرة، وسعادتها وتنعمها بقاء الله تعالى، فالمقصد لذة السعادة بقاء الله فقط، ولن يتنعم بقاء الله إلا من مات محبًا لله تعالى عارفًا بالله، ولن يحبه إلا من عرفه ولن يأنس بربه إلا من طال ذكره له. فالآنس يحصل بدوام الذكر، والمعرفة تحصل بدوام الفكر، والمحبة تتبع المعرفة بالضرورة، ولن يتفرغ القلب لدوام الذكر والفكر إلا إذا فرغ من شواغل الدنيا، ولن يتفرغ من شواغلها إلا إذا انقطع عنه شهواتها حتى يصير مائلًا إلى الخير مريدًا له نافرًا عن الشر مبغضًا له، وإنما يميل إلى الخيرات والطاعات إذا علم أنّ سعادته في الآخرة منوطة بها، كما يميل العاقل إلى القصد والحجامة لعلمه بأن سلامته فيهما.

وإذا حصل أصل الميل بالمعرفة فإنما يقوى بالعمل بمقتضى الميل والمواظبة عليه، فإنّ المواظبة على مقتضى صفات القلب وإرادتها بالعمل تجري مجرى الغذاء والقوت لتلك الصفة حتى تترشح الصفة وتقوى بسببها. فالمائل إلى طلب العلم أو طلب الرئاسة لا يكون ميله في الابتداء إلا ضعيفًا، فإن اتبع مقتضى الميل واشتغل بالعلم وتربية الرئاسة والأعمال المطلوبة لذلك تأكيد ميله ورسخ وعسر عليه النزوع، وإن خالف مقتضى ميله ضعف ميله وانكسر وربما زال وانمحى. بل الذي ينظر إلى وجه حسن مثلًا فيميل إليه طبعه ميلًا ضعيفًا، لو تبعه وعمل بمقتضاه فداوم على النظر والمجالسة والمخالطة والمحاورة تأكد ميله حتى يخرج أمره عن اختياره فلا يقدر على النزوع عنه، ولو فطم نفسه ابتداء وخالف مقتضى ميله لكان ذلك كقطع القوت والغذاء عن صفة الميل، ويكون ذلك زبرًا ودفعا في وجهه حتى يضعف وينكسر بسببه وينقمع وينمحي.

وهكذا جميع الصفات والخيرات والطاعات كلها هي التي تراد بها الآخرة، والشروع كلها هي التي تراد بها الدنيا لا الآخرة. وميل النفس إلى الخيرات الأخروية وانصرافها عن الدنيوية

هو الذي يفرغها للذكر والفكر، ولن يتأكد ذلك إلا بالمواظبة على أعمال الطاعة وترك المعاصي بالجوارح، لأن بين الجوارح وبين القلب علاقة حتى إنه يتأثر كل واحد منهما بالآخر فترى العضو إذا أصابته جراحة تألم بها القلب وترى القلب إذا تألم بعلمه بموت عزيز من أعزته أو بهجوم أمر مخوف تأثرت به الأعضاء وارتعدت الفرائض وتغير اللون، إلا أن القلب هو الأصل المتبوع فكأنه الأمير والراعي، والجوارح كالخدم والرعايا والأتباع. فالجوارح خادمة للقلب بتأكيد صفاتها فيه، فالقلب هو المقصود والأعضاء آلات موصلة إلى المقصود، ولذلك قال النبي ﷺ: «إِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ سَائِرُ الْجَسَدِ»^(١).

وقال عليه الصلاة والسلام: «اللَّهُمَّ أَصْلِحِ الرَّاعِي وَالرَّعِيَّةَ»^(٢). وأراد بالراعي القلب. وقال تعالى: ﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومَهَا وَلَا دِمَاؤَهَا وَلَكِنَّ بِنَاةٍ النَّفْسِ مِنكُمْ﴾ [الحج: ٣٧] وهي صفة القلب. فمن هذا الوجه يجب لا محالة أن تكون أعمال القلب على الجملة أفضل من حركات الجوارح. ثم يجب أن تكون النية من جملتها أفضل لأنها عبارة عن ميل القلب إلى الخير وإرادته له.

وغيرنا من الأعمال بالجوارح أن يعود القلب إرادة الخير ويؤكد فيه الميل إليه ليسرغ من شهوات الدنيا ويكسب على الذكر والفكر، فبالضرورة يكون خيراً بالإضافة إلى الغرض لأنه متمكن من نفس المقصود، وهذا كما أن المعدة إذا تألمت فقد تداوى بأن يوضع الطلاء على الصدر وتداوى بالشرب والدواء الواصل إلى المعدة، فالشرب خير من طلاء الصدر لأن طلاء الصدر أيضاً إنما أريد به أن يسري منه الأثر إلى المعدة، فما يلاقي عين المعدة فهو خير وأنفع. فهكذا ينبغي أن تفهم تأثير الطاعات كلها، إذ المطلوب منها تغيير القلوب وتبديل صفاتها فقط دون الجوارح، فلا تظن أن في وضع الجبهة على الأرض غرضاً من حيث إنه جمع بين الجبهة والأرض، بل من حيث إنه بحكم العادة يؤكد صفة التواضع في القلب، فإن من يجد في نفسه تواضعاً، فإذا استكان بأعضائه وصورها بصورة التواضع تأكد تواضعه، ومن وجد في قلبه رقة على يتيم فإذا مسح رأسه وقلبه تأكدت الرقة في قلبه، ولهذا لم يكن العمل بغير نية مفيداً أصلاً، لأن من يمسح رأس يتيم وهو غافل بقلبه أو ظان أنه يمسح ثوباً لم ينتشر من أعضائه أثر إلى قلبه لتأكيد الرقة، وكذلك من يسجد غافلاً وهو مشغول بهم بأعراض الدنيا لم ينتشر من جبهته ووضعها على الأرض أثر إلى قلبه يتأكد به التواضع، فكان وجود ذلك كعدمه، وما سوى وجوده عدمه بالإضافة إلى الغرض المطلوب منه يسمى باطلاً، فيقال: العبادة بغير نية باطلة وهذا معناه إذا فعل من غفلة، فإذا قصد به رياء أو تعظيم شخص آخر لم

(١) صحيح. حديث «إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح سائر الجسد». متفق عليه من حديث النعمان بن بشير وقد تقدم.

(٢) حديث «اللهم أصلح الراعي والرعية». تقدم ولم أجده.

يكن وجوده كعدمه بل زاده شرًا، فإنه لم يؤكد الصفة المطلوب تأكيدها حتى أكد الصفة المطلوب قمعها وهي صفة الرياء التي هي من الميل إلى الدنيا. فهذا وجه كون النية خير من العمل.

وبهذا أيضًا يعرف معنى قوله ﷺ: «مَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةٌ» لأنَّ هم القلب هو ميله إلى الخير وانصرافه عن الهرب وحب الدنيا وهي غاية الحسنات، وإنما الإتمام بالعمل يزيد بها تأكيدًا، فليس المقصود من إراقة دم القربان الدم واللحم بل ميل القلب عن حب الدنيا وبذلها إثارة لوجه الله تعالى، وهذه الصفة قد حصلت عند جزم النية والهمة وإن عاق عن العمل عائق ف ﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومَهَا وَلَا دِمَائُهَا وَلَكِنَّ يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنْكُمْ﴾ [الحج: ٣٧] والتقوى هاهنا صفة القلب؛ ولذلك قال ﷺ: «إِنَّ قَوْمًا بِالْمَدِينَةِ قَدْ شَرَكُونَا فِي جِهَادِنَا» كما تقدّم ذكره لأنّ قلوبهم في صدق إرادة الخير وبذل المال والنفس والرغبة في طلب الشهادة وإعلاء كلمة الله تعالى كقلوب الخارجين في الجهاد وإنما فارقوهم بالأبدان لعوائق تخص الأسباب الخارجة عن القلب وذلك غير مطلوب إلا لتأكيد هذه الصفات.

وبهذه المعاني تفهم جميع الأحاديث التي أوردناها في فضيلة النية فاعرضها عليها لينكشف لك أسرارها فلا تطول بالإعادة.

بيان تفصيل الأعمال المتعلقة بالنية:

اعلم أنّ الأعمال وإن انقسمت أقسامًا كثيرة من فعل وقول وحركة وسكون وجلب ودفع وفكر وذكر وغير ذلك مما لا يتصوّر إحصاؤه واستقصاؤه فهي ثلاثة أقسام: معاص وطاعات ومباحات.

القسم الأوّل: المعاصي، وهي لا تتغير عن موضعها بالنية، فلا ينبغي أن يفهم الجاهل ذلك من عموم قوله عليه السلام «إنما الأعمال بالنيات» فيظن أن المعصية تنقلب طاعة بالنية، كالذي يغتاب إنسانًا مراعاة لقلب غيره، أو يطعم فقيرًا من مال غيره، أو يبني مدرسة أو مسجدًا أو رباطًا بمال حرام؛ وقصده الخير. فهذا كله جهل، والنية لا تؤثر في إخراجه عن كونه ظلمًا وعدوانًا ومعصية. بل قصده الخير بالشر على خلاف مقتضى الشرع شر آخر، فإن عرفه فهو معاند للشرع، وإن جهله فهو عاص يجهله إذ طلب العلم فريضة على كل مسلم، والخيرات إنما يعرف كونها خيرات للشرع، فكيف يمكن أن يكون الشر خير؟ هيهات، بل المروّج لذلك على القلب خفي الشهوة وباطن الهوى؛ فإنّ القلب إذا كان مائلًا إلى طلب الجاه واستمالة قلوب الناس وسائر حظوظ النفس توسل الشيطان به إلى التلبيس على الجاهل، ولذلك قال سهل رحمه الله تعالى: ما عصي الله تعالى بمعصية أعظم من الجهل قيل: يا أبا محمد هل تعرف شيئًا أشد من الجهل؟ قال: نعم الجهل بالجهل.

وهو كما قال، لأنّ الجهل بالجهل يسدّ بالكلية باب التعلم، فمن يظن بالكلية بنفسه أنه

عالم فكيف يتعلم؟ وكذلك أفضل ما أطيع الله تعالى به العلم، ورأس العلم: العلم بالعلم، كما أن رأس الجهل: الجهل بالجهل. فإن من لا يعلم العلم النافع من العلم الضار اشتغل بما أكب الناس عليه من العلوم المزخرفة التي هي وسائلهم إلى الدنيا، وذلك هو مادة الجهل ومنبع فساد العالم، والمقصود أن من قصد الخير بمعصية عن جهل فهو غير معذور إلا إذا كان قريب العهد بالإسلام ولم يجد بعد مهلة للتعلم. وقد قال الله سبحانه: ﴿فَسْتَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣] وقال النبي ﷺ: «لا يُعْذَرُ الْجَاهِلُ عَلَى الْجَهْلِ، وَلَا يَجِلُّ لِلْجَاهِلِ أَنْ يَشْكُتَ عَلَى جَهْلِهِ، وَلَا لِلْعَالِمِ أَنْ يَشْكُتَ عَلَى عِلْمِهِ»^(١).

ويقرب من تقرب السلاطين ببناء المساجد والمدارس بالمال الحرام تقرب العلماء السوء بتعليم العلم للسفهاء والأشرار؛ المشغولين بالفسق والفجور القاصرين همهم على ممارسة العلماء ومباراة السفهاء واستمالة وجوه الناس وجمع حطام الدنيا وأخذ أموال السلاطين واليتامى والمساكين، فإن هؤلاء إذا تعلموا كانوا قطاع طريق الله تعالى، وانتهض كل واحد منهم في بلدته نائباً عن الدجال يتكالب على الدنيا ويتبع الهوى ويتباعده عن التقوى ويستجرىء الناس بسبب مشاهدته على معاصي الله تعالى، ثم قد ينتشر ذلك العلم إلى مثله وأمثاله ويتخذونه أيضاً آلة ووسيلة في الشر واتباع الهوى، ويتسلسل ذلك، ووبال جميعه يرجع إلى المعلم الذي علمه العلم مع علمه بفساد نيته وقصده، ومشاهدته أنواع المعاصي من أقواله وأفعاله وفي مطعمه وملبسه ومسكنه، فيموت هذا العالم وتبقى آثار شره منتشرة في العالم ألف سنة مثلاً وألفي سنة، وطوبى لمن إذا مات ماتت معه ذنوبه، ثم العجب من جهله حيث يقول: «إنما الأعمال بالنيات» وقد قصدت بذلك نشر علم الدين؛ فإن استعمله هو في الفساد فالمعصية منه لا مني وما قصدت به إلا أن يستعين به على الخير.

وإنما حب الرئاسة والاستتباع والتفاخر بعلو العلم يحسن ذلك في قلبه، والشيطان بواسطة حب الرئاسة يلبس عليه.

وليت شعري ما جوابه عمن وهب سيفاً من قاطع طريق وأعد له خيلاً وأسباباً يستعين بها على مقصوده؛ ويقول إنما أردت البذل والسخاء والتخلق بأخلاق الله الجميلة، وقصدت به أن يغزو بهذا السيف والفرس في سبيل الله تعالى، فإن إعداد الخيل والرباط والقوة للغزاة من أفضل القربات، فإن هو صرفه إلى قطع الطريق فهو العاصي.

وقد أجمع الفقهاء على أن ذلك حرام مع أن السخاء هو أحب الأخلاق إلى الله تعالى حتى قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ لِلَّهِ تَعَالَى ثَلَاثِمِائَةَ خُلُقٍ مَنْ تَقَرَّبَ إِلَيْهِ بِوَاحِدٍ مِنْهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ وَأَحْبَبُهَا

(١) حديث «لا يعذر الجاهل على الجهل ولا يحل للجاهل أن يسكت على جهله». أخرجه الطبراني في الأوسط وابن السني وأبو نعيم في رياضة المتعلمين من حديث جابر بسند ضعيف دون قوله «لا يعذر الجاهل على الجهل» وقال «لا ينبغي» بدل «ولا يحل» وقد تقدم في العلم.

إِلَيْهِ السَّخَاءُ» .

فليت شعري لم حرم هذا السخاء؟ ولم وجب عليه أن ينظر إلى قرينة الحال من هذا الظالم فإذا لاح له من عادته أنه يستعين بالسلاح على الشر فينبغي أن يسعى في سلب سلاحه لا أن يمدّه بغيره؟ والعلم سلاح يقاتل به الشيطان وأعداء الله تعالى وقد يعاون به أعداء الله عز وجل وهو الهوى فمن لا يزال مؤثراً لدنياه على دينه ولهواه على آخرته وهو عاجز عنها لقلّة فضله فكيف إمداده بنوع علم يتمكن به من الوصول إلى شهواته؟ بل لم يزل علماء السلف رحمهم الله تعالى يتفقدون أحوال من يتردد إليهم، فلو رأوا منه تقصيراً في نفل من النوافل أنكروه وتركوا إكرامه، وإذا رأوا منه فجوراً واستحلال حرام هجره ونفوه عن مجالسهم وتركوا تكليمه فضلاً عن تعليمه، لعلمهم بأن من تعلم مسألة ولم يعمل بها وجاوزها إلى غيرها فليس يطلب إلا آلة الشر، وقد تعوّد جميع السلف بالله تعالى من الفاجر العالم بالسنة وما تعوّدوا من الفاجر الجاهل، حكى عن بعض أصحاب أحمد بن حنبل رحمه الله أنه كان يتردد إليه سنين، ثم اتفق أن أعرض عنه أمد وهجره وصار لا يكلمه، فلم يزل يسأله عن تغييره عليه وهو لا يذكره، حتى قال: بلغني أنك طينت حائط دارك من جانب الشارع وقد أخذت قدر سمك الطين وهو أنملة من شارع المسلمين فلا تصلح لنقل العلم. فهكذا كانت مراقبة السلف لأحوال طلاب العلم.

وهذا وأمثاله مما يلتبس على الأغبياء وأتباع الشيطان وإن كانوا أرباب الطيالة والأكمام الواسعة وأصحاب الألسنة الطويلة والفضل الكثير، أعني الفضل من العلوم التي لا تشتمل على التحذير من الدنيا والزجر عنها والترغيب في الآخرة والدعاء إليها، بل هي العلوم التي تتعلق بالخلق ويتوصل بها إلى جمع الحطام واستتباع الناس والتقدم على الأقران.

فإن قوله عليه السلام: «إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ» يختص من الأقسام الثلاثة بالطاعات والمباحات دون المعاصي؛ إذ الطاعة تنقلب معصية بالقصد، والمباح ينقلب معصية وطاعة بالقصد، فأما المعصية فلا تنقلب طاعة بالقصد أصلاً نعم للنية دخل فيها وهو أنه إذا انضاف إليها قصود خبيثة تضاعف وزرها وعظم وبالها كما ذكرنا ذلك في كتاب التوبة.

القسم الثاني الطاعات. وهي مرتبطة بالنيات في أصل صحتها وفي تضاعف فضلها. أما الأصل؛ فهو أن ينوى بها عبادة الله تعالى لا غير، فإن نوى الرياء صارت معصية. وأما تضاعف الفضل: فبكثرية النيات الحسنة فإنّ الطاعة الواحدة يمكن أن ينوى بها خيرات كثيرة فيكون له بكل نية ثواب، إذ كل واحدة منها حسنة ثم تضاعف كل حسنة عشر أمثالها . كما ورد به

(١) حديث «إن لله ثلاثمائة خلق من تقرب إليه بواحد منها دخل الجنة وأحبها إليه السخاء». تقدم في كتاب المحبة والشوق.

(٢) حديث: تضعيف الحسنة بعشر أمثالها. تقدم.

الخبر.

ومثاله القعود في المسجد فإنه طاعة ويمكن أن ينوي فيه نيات كثيرة حتى يصير من فضائل أعمال المتقين ويبلغ به درجات المقربين.

أولها . أن يعتقد أنه بيت الله وأن داخله زائر الله، فيقصد به زيارة مولاه رجاء لما وعده به رسول الله ﷺ حيث قال: «مَنْ قَعَدَ فِي الْمَسْجِدِ فَقَدْ زَارَ اللَّهَ وَحَقَّ عَلَى الْمَزُورِ أَنْ يُكْرِمَ زَائِرَهُ»^(١)

وثانيها: أن ينتظر الصلاة بعد الصلاة فيكون في جملة انتظاره في الصلاة وهو معنى قوله تعالى: ﴿وَرَابِطُوا﴾ [آل عمران: ٢٠٠].

وثالثها: الترهيب بكف السمع والبصر والأعضاء عن الحركات والترددات، فإن الاعتكاف كف وهو في معنى الصوم وهو نوع ترهب، ولذلك قال رسول الله ﷺ: «رَهْبَانِيَّةٌ أُتِي الْقُعُودُ فِي الْمَسَاجِدِ»^(٢).

ورابعها: عكوف الهم على الله ولزوم السر للفكر في الآخرة ودفع الشواغل الصارفة عنه بالاعتزال إلى المسجد.

وخامسها: التجرد لذكر الله أو لاستماع ذكره وللتذكر به كما روي في الخبر: «من غدا إلى المسجد ليذكر الله تعالى أو يذكر به كان كالمجاهد في سبيل الله تعالى»^(٣).

وسادسها: أن يقصد إفادة العلم بأمر معروف ونهي عن منكر، إذ المسجد لا يخلو عن من يسيء في صلاته أو يتعاطى ما لا يحل له فيأمره بالمعروف ويرشده إلى الدين فيكون شريكاً معه في خيره الذي يعلم منه فتضاعف خيراته.

وسابعها: أن يستفيد أخاً في الله فإن ذلك غنيمة وذخيرة للدار الآخرة، والمسجد معيش أهل الدين المحبين لله وفي الله.

وثامنها: أن يترك الذنوب حياءً من الله تعالى وحياءً من أن يتعاطى في بيت الله ما يقتضي هتك الحرمه، وقد قال الحسن بن علي رضي الله عنهما: من أدمن الاختلاف إلى المسجد رزقه الله إحدى سبع خصال: أخاً مستفاداً في الله، أو رحمة مستنزلة، أو علماً مستظرفاً، أو

(١) حديث «من قعد في المسجد فقد زار الله تعالى وحق على المزور لإكرام زائره». أخرجه ابن حبان في الضعفاء من حديث سلمان والبيهقي نحوه من رواية جماعة من الصحابة لم يسموا بإسناد صحيح وقد تقدم في الصلاة. (٢) حديث «رهبانية أمتي القعود في المساجد». لم أجد له أصلاً.

(٣) حديث «من غدا إلى المسجد يذكر الله أو يذكر به كان كالمجاهد في سبيل الله تعالى». هو معروف من قول كعب الأحبار رويته في جزء ابن طوق وللطبراني في الكبير من حديث أبي أمامة «من غدا إلى المسجد لا يريد إلا أن يتعلم خيراً أو يعلمه كان له كأجر حاج تاماً حججه» وإسناده جيد وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة «من غدا إلى المسجد أو راح أعد الله له في الجنة نزلاً كلما غدا أو راح»، [البخاري: ٦٦٢، مسلم: ٦٦٩].

كلمة تدل على هدى، أو تصرفه عن ردى، أو يترك الذنوب خشية أو حياء.

فهذا طريق تكثير النيات، وقس به سائر الطاعات والمباحات إذ ما من طاعة إلا وتحتمل نيات كثيرة، وإنما تحضر في قلب العبد المؤمن بقدر جدّه في طلب الخير وتشمرة له وتفكره فيه. فبهذا تزكوا الأعمال وتتضاعف الحسنات.

القسم الثالث: المباحات. وما من شيء من المباحات إلا ويحتمل نية أو نيات يصير بها من محاسن القربات وينال بها معالي الدرجات، فما أعظم خسران من يغفل عنها ويتعاطاها تعاطي البهائم المهملة عن سهو وغفلة، ولا ينبغي أن يستحقر العبد شيئاً من الخطرات والخطوات واللحظات فكل ذلك يسأل عنه يوم القيامة أنه لم فعله وما الذي قصد به؟ هذا في مباح محض لا يشوبه كراهة ولذلك قال ﷺ: «حَلَالُهَا حِسَابٌ وَحَرَامُهَا عِقَابٌ» (١).

وفي حديث معاذ بن جبل أن النبي ﷺ قال: «إِنَّ الْعَبْدَ لَيُسْأَلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ عَنْ كُحْلِ عَيْنَيْهِ وَعَنْ فَنَاتِ الطَّيْنَةِ بِأَصْبَعِيهِ وَعَنْ لَمْسِهِ ثَوْبَ أَخِيهِ» (٢).

وفي خبر آخر: «مَنْ تَطَيَّبَ لِلَّهِ تَعَالَىٰ جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَرِيحُهُ أَطْيَبُ مِنَ الْمِسْكِ وَمَنْ تَطَيَّبَ لِغَيْرِ اللَّهِ تَعَالَىٰ جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَرِيحُهُ أَتْنُ مِنَ الْجِيفَةِ» فاستعمال الطيب مباح ولكن لا بد فيه من نية. فإن قلت: فما الذي يمكن أن ينوي بالطيب وهو حظ من حظوظ النفس وكيف يتطيب لله؟ فاعلم: أنّ من يتطيب مثلاً يوم الجمعة وفي سائر الأوقات يتصوّر أن يقصد التمتع بلذات الدنيا، أو يقصد به إظهار التفاخر بكثرة المال ليحسده الأقران، أو يقصد به رياء الخلق ليقوم له الجاه في قلوبهم ويذكر بطيب الرائحة، أو ليتودد به إلى قلوب النساء الأجنبية إذا كان مستحلاً للنظر إليهن، ولأمور أخرى لا تحصى. وكل هذا يجعل التطيب معصية فبذلك يكون أنتن من الجيفة في القيامة إلا القصد الأوّل وهو التلذذ والتنعيم فإنّ ذلك ليس بمعصية إلا أنه يسأل عنه، ومن نوقش الحساب عذب.

ومن أتى شيئاً من مباح الدنيا لم يعذب عليه في الآخرة ولكن ينقص من نعيم الآخرة له بقدره، وناهيك خسراناً بأن يستعجل ما يفنى ويخسر زيادة نعيم لا يفنى. وأما النية الحسنة فإنه ينوي به اتباع سنة رسول الله ﷺ يوم الجمعة (٣).

(١) حديث «حلالها حساب وحرامها عذاب». تقدم.

(٢) حديث معاذ «إن العبد ليسأل يوم القيامة عن كل شيء حتى عن كحل عينيه وعن فنات الطين بإصبعيه وعن لمسه ثوب أخيه». لم أجد له إسناداً.

(٣) صحيح: حديث «إن لبس الثياب الحسنة يوم الجمعة سنة». أخرجه أبو داود والحاكم وصححه من حديث أبي هريرة وأبي سعيد «من اغتسل يوم الجمعة ومس من طيب إن كان عنده ولبس أحسن ثيابه... الحديث» ولأبي داود وابن ماجه من حديث عبد الله بن سلام «ما على أحدكم لو اشترى ثوبين ليوم الجمعة سوى ثوبي مهنته» وفي إسناده اختلاف وفي الصحيحين: أن عمر رأى حلة سبراء عند باب المسجد فقال: «يا رسول الله لو اشتريت هذه فلبستها يوم الجمعة... الحديث»، [البخاري: ٢٦١٢، مسلم: ٢٠٦٨].

وينوي بذلك أيضًا تعظيم المسجد واحترام بيت الله فلا يرى أن يدخله زائرًا لله إلا طيب الرائحة، وأن يقصد به ترويح جيرانه ليستريحوا في المسجد عند مجاورته بروائحهم، وأن يقصد به دفع الروائح الكريهة عن نفسه التي تؤدي إلى إيذاء مخالطيه، وأن يقصد حسم باب الغيبة عن المغتابين إذا اغتابوه بالروائح الكريهة فيعصون الله بسببه، فمن تعرّض للغيبة وهو قادر على الاحتراز منها فهو شريك في تلك المعصية كما قيل:

إذا ترحلت عن قوم وقد قدروا أن لا تفارقهم فالراحلون هُم
وقال الله تعالى: ﴿وَلَا تَسْبُوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسْبُوا اللَّهَ عَدَاوَةً بَغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: ١٠٨] أشار به إلى أن التسبب إلى الشر شر، وأن يقصد به معالجة دماغه لتزيد به فطنته وذكاؤه ويسهل عليه درك مهمات دينه بالفكر، فقد قال الشافعي رحمه الله: من طاب ريحه زاد عقله. فهذا وأمثاله من النيات لا يعجز الفقيه عنها إذا كانت تجارة الآخرة وطلب الخير غالبية على قلبه.

وإذا لم يغلب على قلبه إلا نعيم الدنيا لم تحضره هذه النيات وإن ذكرت له لم ينبعث لها قلبه فلا يكون معه منها إلا حديث النفس وليس ذلك من النية في شيء. والمباحات كثيرة ولا يمكن إحصاء النيات فيها فقس بهذا الواحد ما عداه، ولهذا قال بعض العارفين من السلف: إنني أستحب أن يكون لي في كل شيء نية حتى في أكلتي وشربي ونومي ودخولي إلى الخلاء، وكل ذلك مما يمكن أن يقصد به التقرب إلى الله تعالى، لأن كل ما هو سبب لبقاء البدن وفراغ القلب من مهمات البدن فهو معين على الدين، فمن قصده من الأكل التقوي على العبادة.

ومن الوقاع تحصيل دينه وتطبيب قلب أهله والتوصل به إلى نسل صالح يعبد الله تعالى بعده فتكثر به أمة محمد ﷺ كان مطيعًا بأكله ونكاحه، وأغلب حظوظ النفس الأكل والوقاع وقصد الخير بهما غير ممتنع لمن غلب على قلبه هم الآخرة، ولذلك ينبغي أن يحسن نيته مهما ضاع له مال ويقول هو في سبيل الله، وإذا بلغه اغتياب غيره له فليطيب قلبه بأنه سيحمل سيئاته وستنقل إلى ديوانه حسناته، ولينوي ذلك بسكوته عن الجواب.

ففي الخبر: «إِنَّ الْعَبْدَ لِيُحَاسِبَ فَيَبْطُلَ أَعْمَالُهُ لِدُخُولِ الْآفَةِ فِيهَا حَتَّى يَسْتَوْجِبَ النَّارَ، ثُمَّ يَنْشُرُ لَهُ مِنَ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ مَا يَسْتَوْجِبُ بِهِ الْجَنَّةَ فَيَتَعَجَّبُ وَيَقُولُ: يَا رَبُّ هَذِهِ أَعْمَالٌ مَا عَمِلْتُهَا قَطُّ؟» فيقال: هذه أعمال الذين اغتابوك وآذوك وظلموك^(١)، وفي الخبر: «إِنَّ الْعَبْدَ

(١) حديث «إن العبد ليحاسب فيبطل أعماله لدخول الآفة فيها حتى يستوجب النار، ثم ينشر له من الأعمال الصالحة ما يستوجب به الجنة فيتعجب ويقول: يا رب هذه أعمال ما عملتها قط؟» فيقال: هذه أعمال الذين اغتابوك وآذوك وظلموك» وفيه ابن لهيعة.

ليوافي يوم القيامة بحسناتٍ أمثال الجبال لو خلصت له لدخل الجنة فيأتي وقد ظلم هذا وسثم هذا وضرب هذا فيقتص لهذا من حسناته ولهذا من حسناته حتى لا يبقى له حسنة. فتقول الملائكة: قد فنيت حسناته وبقي طالبون يقول الله تعالى ألقوا عليه من سيئاتهم ثم صكوا له صكاً إلى النار .

وبالجملة؛ فأياك ثم إياك أن تستحقر شيئاً من حركاتك فلا تحترز من غرورها وشروها ولا تعدّ جوابها يوم السؤال والحساب فإن الله تعالى مطلع عليك وشهيد ﴿مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ وقال بعض السلف: كتبت كتاباً وأردت أن أتربه من حائط جار لي فتحرجت ثم قلت: تراب وما تراب فتربته فهتف بي هاتف: سيعلم من استخف بتراب جاره ما يلقي غداً من سوء الحساب. وصلى رجل مع الثوري فرآه مقلوب الشوب فعرفه فمدّ يده ليصلحه ثم قبضها فلم يسوّه، فسأله عن ذلك فقال: إني لبسته لله تعالى ولا أريد أن أسويه لغير الله.

وقد قال الحسن: إن الرجل ليتعلق بالرجل يوم القيامة فيقول: وبيني وبينك الله فيقول: والله ما أعرفك؟ فيقول بلى أنت أخذت لبنة من حائطي وأخذت خيطاً من ثوبي

فهذا وأمثاله من الأخبار قطع قلوب الخائفين، فإن كنت من أولي العزم والنهي ولم تكن من المغترين فانظر لنفسك الآن ودقق الحساب على نفسك قبل أن يدقق عليك، وراقب أحوالك ولا تسكن ولا تتحرك ما لم تتأمل أولاً أنك لم تتحرك، وماذا تقصد، وما الذي تنال به من الدنيا، وما الذي يفوتك من الآخرة، وبماذا ترجح الدنيا على الآخرة؟ فإذا علمت أنه لا باعث إلا الدين فأمض عزمك وما خطر ببالك وإلا فأمسك، ثم راقب أيضاً قلبك في إمساكك وامتناعك فإن ترك الفعل فعل ولا بدّ له من نية صحيحة، فلا ينبغي أن يكون الداعي هوى خفي لا يطلع عليه، ولا يغرّنك ظواهر الأمور ومشهورات الخيرات وافطن للأغوار والأسرار تخرج من حيز أهل الاغترار.

فقد روي عن زكريا عليه السلام أنه كان يعمل في حائط بالطين، وكان أجيراً لقوم فقدّموا له رغيفاً إذ كان لا يأكل إلا من كسب يده فدخل عليه قوم فلم يدعهم إلى الطعام حتى فرغ، فتعجبوا منه لما علموا من سخائه وزهده وظنوا أنّ الخير في طلب المساعدة في الطعام، فقال: إني أعمل لقوم بالأجرة وقدّموا إليّ الرغيف لأتقوى به على عملهم، فلو أكلتم معي لم يكفكم ولم يكفني وضعفت عن عملهم فالبصير هكذا ينظر في البواطن بنور الله، فإنّ ضعفه عن العمل نقص في فرض وترك الدعوة إلى الطعام نقص في فضل، ولا حكم للفضائل مع

الفرائض. وقال بعضهم: دخلت على سفيان وهو يأكل فما كلمني حتى لعق أصابعه ثم قال: لولا أنني أخذته بيدني لأحببت أن تأكل منه.

وقال سفيان: من دعا رجلاً إلى طعامه وليس له رغبة أن يأكل منه فإن أجابه فأكل فعليه وزران وإن لم يأكل فعليه زر واحد، وأراد بأحد الوزرين النفاق والثاني تعريضه أخاه لما يكره لوعلمه. فهكذا ينبغي أن يتفقد العبد نيته في سائر الأعمال فلا يقدم ولا يحجم إلا بنية، فإن لم تحضره النية توقف فإن النية لا تدخل تحت الاختيار.

بيان أنّ النية غير داخلة تحت الاختيار:

اعلم أنّ الجاهل يسمع ما ذكرناه من الوصية بتحسين النية وتكثيرها مع قوله ﷺ: «أثما الأثمّال بالنيّات» فيقول في نفسه عند تدريسه أو تجارته أو أكله: نويت أن أدرّس لله أو أكل لله. ويظنّ ذلك نية وهيئات فذلك حديث نفس وحديث لسان وفكر أو انتقال من خاطر إلى خاطر، والنية بمنعزل من جميع ذلك. وإنما النية انبعاث النفس وتوجهها وميلها إلى ما ظهر لها أنّ فيه غرضها إما عاجلاً وإما آجلاً.

والميل إذا لم يكن لا يمكن اختراعه واكتسابه بمجرد الإرادة، بل ذلك كقول الشيبان: نويت أن أشتهي الطعام وأميل إليه، أو قول الفارغ: نويت أن أعشق فلاناً وأحبه وأعظمه بقلبي، فذلك محال.

بل لا طريق إلى اكتساب صرف القلب إلى الشيء وميله إليه وتوجهه نحوه إلا باكتساب أسبابه وذلك مما قدم يقدر عليه وقد لا يقدر عليه. وإنما تنبعث النفس إلى الفعل إجابة للغرض الباعث الموافق للنفس الملائم لها، وما لم يعتقد الإنسان أنّ غرضه منوط بفعل من الأفعال فلا يتوجه نحوه قصده.

وذلك مما لا يقدر على اعتقاده في كل حين، وإذا اعتقد فإنما يتوجه القلب إذا كان فارغاً غير مصروف عنه بغرض شاغل أقوى منه وذلك لا يمكن في كل وقت، والدواعي والصوارف لها أسباب كثيرة بها تجتمع، ويختلف ذلك بالأشخاص وبالأحوال وبالأعمال.

فإذا غلبت شهوة النكاح مثلاً ولم يعتقد غرضاً صحيحاً في الولد ديناً ولا دنياً لا يمكنه أن يواقع على نية الولد بل لا يمكن إلا على نية قضاء الشهوة، إذ النية هي إجابة الباعث ولا باعث إلا الشهوة، فكيف ينوي الولد؟ وإذا لم يغلب على قلبه أن إقامة سنة النكاح^(١) اتباعاً لرسول الله ﷺ يعظم فضلها لا يمكن أن ينوي بالنكاح اتباع السنة إلا أن يقول ذلك بلسانه وقلبه، وهو حديث محض ليس بنية. نعم طريق اكتساب هذه النية مثلاً أن يقوي أولاً إيمانه بالشرع ويقوي إيمانه بعظم ثواب من سعى في تكثير أمة محمد ﷺ، ويدفع عن نفسه جميع

(١) حديث «إن النكاح سنة رسول الله ﷺ». تقدم في آداب النكاح.

المنفرات عن الولد من ثقل المؤنة وطول التعب وغيره، فإذا فعل ذلك ربما انبعث من قلبه رغبة إلى تحصيل الولد للشواب فتحركه تلك الرغبة وتحرك أعضاؤه لمباشرة العقد، فإذا انتهضت القدرة المحركة للسان بقبول العقد طاعة لهذا. الباعث الغالب على القلب كان ناويًا، فإن لم يكن كذلك فما يقدره في نفسه ويردده في قلبه من قصد الولد وسواس وهذيان.

ولهذا امتنع جماعة من السلف من جملة من الطاعات إذ لم تحضرهم النية وكانوا يقولون ليس تحضرنا فيه نية، حتى إن ابن سيرين لم يصل على جنازة الحسن البصري وقال: ليس تحضرني نية. ونادى بعضهم امرأته وكان يسرح شعره أن هات المدري، فقالت: أجيء بالمرأة؟ فسكت ساعة ثم قال: نعم، فقيل له في ذلك فقال: كان لي في المدري نية ولم تحضرني في المرأة نية فتوقفت حتى هياها الله تعالى. ومات حماد بن سليمان، وكان أحد علماء أهل الكوفة، فقيل للثوري: ألا تشهد جنازته؟ فقال: لو كان لي نية لفعلت.

وكان أحدهم إذا سئل عملاً من أعمال البر يقول: إن رزقني الله تعالى نية فعلت. وكان طاوس لا يحدث إلا بنية، وكان يسأل أن يحدث فلا يحدث، ولا يسأل فيبتدئ فقيل له في ذلك قال: أفتحبون أن أحدث بغير نية؟ إذا حضرني نية فعلت.

وحكي أن داود بن المحبر لما صنف كتاب العقل، جاءه أحمد بن حنبل فطلبه منه فنظر فيه أحمد صفحاً ورده فقال مالك: قال فيه أسانيد ضعاف، فقال له داود: أنا لم أخرجه على الأسانيد، فانظر فيه بعين الخبر إنما نظرت فيه بعين العمل فانتمعت، قال أحمد: فرده علي حتى أنظر فيه بالعين التي نظرت فأخذه ومكث عنده طويلاً ثم قال: جزاك الله خيراً فقد انتفعت به.

وقيل لطاوس: ادع لنا فقال: حتى أجد له نية. وقال بعضهم: أنا في طلب نية لعيادة رجل منذ شهر فما صحت لي بعد. وقال عيسى بن كثير: مشيت مع ميمون بن مهران فلما انتهى إلى باب داره انصرفت فقال ابنه: ألا تعرض عليه العشاء؟ قال: ليس من نيتي.

وهذا لأن النية تتبع النظر فإذا تغير النظر تغيرت النية، وكانوا لا يرون أن يعملوا عملاً إلا بنية لعلمهم بأن النية روح العمل وأن العمل بغير نية صادقة رياء وتكلف وهو سبب مقت لا سبب قرب، وعلموا أن النية ليست هي قول القائل بلسانه: نويت، بل هو انبعاث القلب يجري مجرى الفتوح من الله تعالى، فقد تيسر في بعض الأوقات وقد تتعذر في بعضها. نعم من كان الغالب على قلبه أمر الدين تيسر عليه في أكثر الأحوال إحضار النية للخيرات فإن قلبه مائل بالجملة إلى أصل الخير فينبعث إلى التفاصيل غالباً.

ومن مال قلبه إلى الدنيا وغلبت عليه لم يتيسر له ذلك بل لا يتيسر له في الفرائض إلا بجهد جهيد، وغايته أن يتذكر النار ويحذر نفسه عقابها أو نعيم الجنة ويرغب نفسه فيها فربما تنبعث له داعية ضعيفة فيكون ثوابه بقدر رغبته ونيته.

وأما الطاعة على نية إجلال الله تعالى لاستحقاقه الطاعة والعبودية فلا تيسر للراغب في الدنيا، وهذه أعز النيات وأعلاها، ويعز على بسيط الأرض من يفهما فضلاً عما يتعاطاها. ونيات الناس في الطاعات أقسام: إذ منهم من يكون عمله إجابة لباعث الخوف فإنه يتقي النار. ومنهم من يعمل إجابة لباعث الرجاء وهو الرغبة في الجنة، وهذا وإن كان نازلاً بالإضافة إلى قصد طاعة الله وتعظيمه لذاته ولجلاله لا لأمر سواه، فهو من جملة النيات الصحيحة لأنه ميل إلى الموعود في الآخرة وإن كان من جنس المألوفات في الدنيا، وأغلب البواعث باعث الفرج والبطن وموضع قضاء وطرها الجنة، فالعامل لأجل الجنة عامل لبطنه وفرجه، كالأجير السوء، ودرجته درجة البله وإنه لينالها بعمله إذ أكثر أهل الجنة البله.

وأما عبادة ذوي الألباب فإنها لا تجاوز ذكر الله تعالى والفكر فيه حباً لجماله وجلاله وسائر الأعمال تكون مؤكداً وروادف، وهؤلاء أرفع درجة من الالتفات إلى المنكوح والمطعموم في الجنة فإنهم لم يقصدوها، بل هم الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه فقط، وثواب الناس بقدر نياتهم فلا جرم يتنعمون بالنظر إلى وجهه الكريم، ويسخرون ممن يلتفت إلى وجه الحور العين كما يسخر المتنعم بالنظر إلى الحور العين ممن يتنعم بالنظر إلى وجه الصور المصنوعة من الطين بل أشدّ، فإن التفاوت بين جمال حضرة الربوبية وجمال الحور العين أشدّ وأعظم كثيراً من التفاوت بين جمال الحور العين والصور المصنوعة من الطين، بل استعظام النفوس البهيمية الشهوانية لقضاء الوطر من مخالطة الحسان وإعراضهم عن جمال وجه الله الكريم يضاهي استعظام الخنفساء لصاحبيتها وإفها لها وإعراضها عن النظر إلى جمال وجوه النساء، فعمى أكثر القلوب عن إبصار جمال الله وجلاله يضاهي عمى الخنفساء عن إدراك جمال النساء فإنها لا تشعر به أصلاً ولا تلتفت إليه، ولو كان لها عقل وذكرن لها لاستحسنن عقل من يلتفت إليهن: ﴿وَلَا يَرَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ [هود: ١١٨] ، ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٣] ، ﴿وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [هود: ١١٩] .

حكى أن أحمد بن خضرويه رأى ربه عز وجل في المنام فقال له: كل الناس يطلبون مني الجنة إلا أبا يزيد فإنه يطلبني، ورأى أبو يزيد ربه في المنام قال: يا رب كيف الطريق إليك؟ فقال: اترك نفسك وتعال إليّ.

ورؤي الشبلي بعد موته في المنام فقليل له: ما فعل الله بك؟ فقال: لم يطالبني على الدعاوى بالبرهان إلا على قول واحد: قلت يوماً أي خسارة أعظم من خسران الجنة؟ فقال: أي خسارة أعظم من خسران لقائي.

والغرض أن هذه النيات متفاوتة الدرجات ومن غلب على قلبه واحدة منها ربما لا تيسر له العدول إلى غيرها.

ومعرفة هذه الحقائق تورث أعمالاً وأفعالاً لا يستنكرها الظاهريون من الفقهاء، فإننا نقول:

من حضرت له نية في مباح ولم تحضر في فضيلة فالمباح أولى وانتقلت الفضيلة إليه وصارت الفضيلة في حقه نقيصة لأن الأعمال بالنيات. وذلك مثل العفو فإنه أفضل من الانتصار في الظلم، وربما تحضره نية في الانتصار دون العفو فيكون ذلك أفضل. ومثل أن يكون له نية في الأكل والشرب والنوم ليريح نفسه ويتقوى على العبادات في المستقبل وليس تنبعث نيته في الحالين للصوم والصلاة فالأكل والشرب والنوم هو الأفضل له.

بل لو ملَّ العبادة لمواظبته عليها وسكن نشاطه وضعفت رغبته وعلم أنه لو ترفه ساعة بلهو وحديث عاد نشاطه فاللهو أفضل له من الصلاة. قال أبو الدرداء: إني لأستجم نفسي بشيء من اللهو فيكون ذلك عونًا لي على الحق.

وقال علي كرم الله وجهه: رَوَّحُوا القلوب فإنها إذا أكرهت عميت. وهذه دقائق لا يدركها إلا سمسرة العلماء دون الحشوية منهم، بل الحاذق بالطب قد يعالج المحرور باللحم مع حرارته ويستبعده القاصر في الطب وإنما يبتغي به أن يعيد أولاً قوته ليحتمل المعالجة بالضد، والحاذق في لعب الشطرنج مثلاً قد ينزل عن الرخ والفرس مجاناً ليتوصل بذلك إلى الغلبة، والضعيف البصيرة قد يضحك به ويتعجب منه.

وكذلك الخبير بالقتال قد يفر بين يدي قرينه ويوليه دبره حيلة منه ليستجره إلى مضيق فيكتر عليه فيقهره. فكذلك سلوك طريق الله تعالى كله قتال مع الشيطان ومعالجة للقلب والبصير الموفق يقف فيها على لطائف من الحيل يستبعدها الضعفاء، فلا ينبغي للمريد أن يضمّر إنكاراً على ما يراه من شيخه ولا للمتعلم أن يعترض على أستاذه، بل ينبغي أن يقف عند حد بصيرته وما لا يفهمه من أحوالهما يسلمه لهما إلى أن ينكشف له أسرار ذلك بأن يبلغ رتبتهما وينال درجتهم ومن الله حسن التوفيق.

الباب الثاني في الإخلاص
وفضيلته وحقيقته ودرجاته

فضيلة الإخلاص :

قال الله تعالى: ﴿وَمَا أُرْوَأُ إِلَّا لِمَعْبُدُوا اللَّهَ عَاطِلِينَ لَهُ الَّذِينَ﴾ [النساء: ١٤٦] وقال: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ [الزمر: ١٧] وقال تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ﴾ [النساء: ١٤٦] وقال تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الأنعام: ١٠١] نزلت فيمن يعمل لله ويحب أن يحمد عليه.

وقال النبي ﷺ: «ثَلَاثٌ لَا يَغْلُ عَلَيْهِنَّ قَلْبُ رَجُلٍ مُسْلِمٍ إِخْلَاصُ الْعَمَلِ لِلَّهِ»^(١)، وعن مصعب بن سعد عن أبيه قال: ظنَّ أبي أنَّ له فضلًا على من هو دونه من أصحاب رسول الله ﷺ فقال النبي ﷺ: «إِنَّمَا نَصَرَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ هَذِهِ الْأُمَّةَ بَضْعَائِهَا وَدَعْوَتِهَا وَإِخْلَاصِهِمْ»^(٢). وعن الحسن قال: قال رسول الله ﷺ: «يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: الْإِخْلَاصُ سِرٌّ مِنْ سِرِّي اسْتَوْدَعْتُهُ قَلْبَ مَنْ أَحْبَبْتُ مِنْ عِبَادِي»^(٣)، وقال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه: لا تهتموا لقله العمل واهتموا للقبول، فإن النبي ﷺ قال لمعاذ بن جبل: «أَخْلِصِ الْعَمَلَ يَجْزِكَ الْقَلِيلُ»^(٤)، وقال عليه السلام: «مَا مِنْ عَبْدٍ يُخْلِصُ لِلَّهِ الْعَمَلَ أَرْبَعِينَ يَوْمًا إِلَّا ظَهَرَتْ يَنْبِيعُ الْحِكْمَةِ مِنْ قَلْبِهِ عَلَى لِسَانِهِ»^(٥).

وقال عليه الصلاة والسلام: «أَوَّلُ مَنْ يُشَاقُّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثَلَاثَةٌ: رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ الْعِلْمَ فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى مَا صَنَعْتَ فِيمَا عَلِمْتَ فَيَقُولُ: يَا رَبِّ كُنْتُ أَقْوَمُ آتَاءَ اللَّيْلِ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ، فَيَقُولُ اللَّهُ

(١) صحيح: حديث «ثلاث لا يغفل عليهن قلب رجل مسلم: إخلاص العمل لله». أخرجه الترمذي وصححه من حديث النعمان بن بشير، [الترمذي: ٢٦٥٨، وانظر صحيح الجامع: ٦٧٦٦، من حديث ابن مسعود].

(٢) صحيح: حديث مصعب بن سعد عن أبيه: أنه ظن أن له فضلًا على من دونه من أصحاب النبي ﷺ فقال النبي ﷺ: «إِنَّمَا نَصَرَ اللَّهُ هَذِهِ الْأُمَّةَ بَضْعَائِهَا وَدَعْوَتِهَا وَإِخْلَاصِهِمْ». رواه النسائي وهو عند البخاري بلفظ «هل تنصرون وترزقون إلا بضعفائكم»، [البخاري: ٢٨٩٦].

(٣) حديث الحسن مرسلًا «يقول الله تعالى الإخلاص سر من سري استودعته قلب من أحببت من عبادي». وروناه في جزء من مسلسلات القزويني مسلسلًا يقول كل واحد من رواه: سألت فلانا عن الإخلاص فقال وهو من رواية أحمد بن عطاء الهجيمي عن عبد الواحد بن زيد عن حذيفة عن النبي ﷺ عن جبريل عن الله تعالى، وأحمد بن عطاء وعبد الواحد كلاهما متروك وهما من الزهاد ورواه أبو القاسم القشيري في الرسالة من حديث علي بن أبي طالب بسند ضعيف.

(٤) ضعيف: حديث أنه قال لمعاذ «أخلص العمل يجزك منه القليل». أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث معاذ وإسناده منقطع، [انظر ضعيف الترغيب: ٢].

(٥) حديث «ما من عبد يخلص لله أربعين يومًا إلا ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه». أخرجه ابن عدي ومن طريقه ابن الجوزي في الموضوعات عن أبي موسى وقد تقدم.

تَعَالَى كَذَبَتْ وَتَقُولُ الْمَلَائِكَةُ كَذَبْتَ بَلْ أَرَدْتَ أَنْ يُقَالَ فُلَانٌ عَالِمٌ أَلَا فَقَدْ قِيلَ ذَلِكَ. وَرَجُلٌ
آتَاهُ اللَّهُ مَالًا فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى لَقَدْ أَنْعَمْتُ عَلَيْكَ فَمَاذَا صَنَعْتَ فَيَقُولُ: يَا رَبِّ كُنْتُ أَتَصَدَّقُ آتَاءَ
الَّيْلِ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ.

فيقول الله تعالى كذبت وتقول الملائكة كذبت بل أردت أن يقال فلان جواد ألا فقد قيل
ذلك. وَرَجُلٌ قُتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ تَعَالَى فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى مَاذَا صَنَعْتَ فَيَقُولُ، يَا رَبِّ أُمِرْتُ
بِالْجِهَادِ فَقَاتَلْتُ حَتَّى قُتِلْتُ، فَيَقُولُ اللَّهُ كَذَبْتَ وَتَقُولُ الْمَلَائِكَةُ كَذَبْتَ بَلْ أَرَدْتَ أَنْ يُقَالَ فُلَانٌ
شُجَاعٌ أَلَا فَقَدْ قِيلَ ذَلِكَ» قال أبو هريرة، ثم خبط رسول الله ﷺ فخذي وقال: «يا أبا هريرة
أولئك أول خلقٍ تُسَعَّرُ نَارُ جَهَنَّمَ بِهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(١).

فدخل راوي هذا الحديث على معاوية وروى له ذلك فبكى حتى كادت نفسه تزهق ثم
قال: صدق الله إذ قال: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾ [هود: ١٥] الآية.
وفي الإسرائيليات: أن عابداً كان يعبد الله دهرًا طويلاً فجاءه قوم فقالوا: إن هاهنا قومًا
يعبدون شجرة من دون الله تعالى، فغضب لذلك وأخذ فأسه على عاتقه وقصد الشجرة
ليقطعها، فاستقبله إبليس في صورة شيخ فقال: أين تريد رحمك الله؟ قال: أريد أن أقطع هذه
الشجرة، قال: وما أنت وذاك تركت عبادتك واشتغالك بنفسك وتفرغت لغير ذلك فقال: إن
هذا من عبادتي، قال: فإني لا أترك أن تقطعها، فقاتله فأخذه العابد فطرحه إلى الأرض وقعد
على صدره فقال له إبليس: أطلقني حتى أكلمك، فقام عنه فقال إبليس: يا هذا إن الله تعالى قد
أسقط عنك هذا ولم يفرضه عليك وما تعبدها أنت وما عليك من غيرك ولله تعالى أنبياء في
أقاليم الأرض ولو شاء لبعثهم إلى أهلها وأمرهم بقطعها فقال العابد: لا بد لي من قطعها، فبابذه
للقتال فغلبه العابد وصرعه وقعد على صدره فعجز إبليس فقال له: هل لك في أمر فصل بيني
وبينك وهو خير لك وأنفع؟ قال: وما هو؟ قال: أطلقني حتى أقول لك، فأطلقه فقال إبليس:
أنت رجل فقير لا شيء لك إنما أنت كل على الناس يعولونك، ولعلك تحب أن تتفضل على
إخوانك وتواسي جيرانك وتشبع وتستغني عن الناس قال: نعم، قال: فارجع عن هذا الأمر ولك
عليّ أن أجعل عند رأسك في كل ليلة دينارين إذا أصبحت أخذتهما فأنفقت على نفسك
وعيالك وتصدقت على إخوانك، فيكون ذلك أنفع لك وللمسلمين من قطع هذه الشجرة التي
يغرس مكانها ولا يضرهم قطعها شيئًا ولا ينفع إخوانك المؤمنين قطعك إياها فتفكر العابد فيما
قال، وقال: صدق الشيخ لست بنبي فيلزمني قطع هذه الشجرة ولا أمرني الله أن أقطعها
فأكون عاصيًا بتركها، وما ذكره أكثر منفعة، فعاهده على الوفاء بذلك وحلف له، فرجع العابد
إلى متعبده فبات، فلما أصبح رأى دينارين عند رأسه فأخذهما وكذلك الغد، ثم أصبح اليوم

(١) حديث «أول من يسأل يوم القيامة ثلاثة». قد تقدم.

الثالث وما بعده فلم ير شيئاً. فغضب وأخذ فأسه على عاتقه فاستقبله إبليس في صورة شيخ فقال له: إلى أين؟ قال: أقطع تلك الشجرة فقال: كذبت والله ما أنت بقادر على ذلك ولا سبيل لك إليها، قال: فتناوله العابد ليفعل به كما فعل أول مرة فقال: هيهات، فأخذه إبليس وصرعه، فإذا هو كالعصفور بين رجليه وقعد إبليس على صدره وقال: لتنتهين عن هذا الأمر أو لأذبحنك؟ فنظر العابد فإذا لا طاقة له به، قال: يا هذا غلبتني فخل عني وأخبرني كيف غلبتك أولاً وغلبتني الآن؟ فقال: لأنك غضبت أول مرة لله وكانت نيتك الآخرة فسخرني الله لك، وهذه المرة غضبت لنفسك وللدنيا فصرعتك.

وهذه الحكايات تصديق قوله تعالى: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ﴾ [الحجر: ٤٠] إذ لا يتخلص العبد من الشيطان إلا بالإخلاص، ولذلك كان معروف الكرخي رحمه الله تعالى يضرب نفسه ويقول: يا نفس أخلصي تتخلصي.

وقال يعقوب المكفوف: المخلص من يكتم حسناته كما يكتم سيئاته. وقال سليمان طوبى لمن صحت له خطوة واحدة لا يريد بها إلا الله تعالى وكتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى أبي موسى الأشعري: من خلصت نيته كفاه الله تعالى ما بينه وبين الناس، وكتب بعض الأولياء إلى أخ له: أخلص النية في أعمالك يكفك القليل من العمل. وقال أيوب السخيتاني: تخليص النيات على العمال أشد عليهم من جميع الأعمال. وكان مطرف يقول: من صفا صفي له ومن خلط خلط عليه.

ورؤي بعضهم في المنام فقيل له: كيف وجدت أعمالك؟ فقال: كل شيء عملته لله وجدته، حتى حبة رمان لفظتها من طريق وحتى هرة ماتت لنا رأيتها في كفة الحسنات، وكان في قلنسوتي خيط من حرير فرأيته في كفة السيئات، وكان قد نفق حمار لي قيمته مائة دينار فما رأيت له ثواباً فقلت: موت سنور في كفة الحسنات وموت حمار ليس فيها؟ فقيل لي: إنه قد وجه حيث بعثت به، فإنه لما قيل لك: قد مات، قلت: في لعنة الله، فبطل أجرك فيه، ولو قلت: في سبيل الله، لوجدته في حسناتك. وفي رواية قال: وكنت قد تصدقت بصدقة بين الناس فأعجبني نظرهم إلي فوجدت ذلك لا علي ولا لي.

قال سفیان لما سمع هذا: ما أحسن حاله إذ لم يكن عليه فقد أحسن إليه. وقال يحيى بن معاذ: الإخلاص يميز العمل من العيوب كتمييز اللبن من الفرث والدم.

وقيل: كان رجل يخرج في زي النساء ويحضر كل موضع يجتمع فيه النساء من عرس أو مأم، فانفق أن حضر يوماً موضعاً فيه مجمع للنساء فسرقت درة فصاحوا أن أغلقوا الباب حتى نفتش، فكانوا يفتشون واحدة واحدة حتى بلغت النوبة إلى الرجل وإلى امرأة معه، فدعا الله تعالى بالإخلاص وقال: إن نجوت من هذه الفضيحة لا أعود إلى مثل هذا، فوجدت الدرّة مع تلك المرأة فصاحوا: أن أطلقوا الحرّة فقد وجدنا الدرّة.

وقال بعض الصوفية: كنت قائماً مع أبي عبيد التستري وهو يحرق أرضه بعد العصر من يوم عرفة، فمرّ به بعض إخوانه من الأبدال فسأزه بشيء فقال أبو عبيد: لا، فمرّ كالسحاب يمسح الأرض حتى غاب عن عيني، فقلت لأبي عبيد: ما قال لك؟ فقال: سألتني أن أحج معه، قلت: لا، قلت: فهلا فعلت؟ قال: ليس لي في الحج نية وقد نويت أن أتم هذه الأرض العشية فأخاف إن حججت معه لأجله تعرضت لمقت الله تعالى، لأنني أدخل في عمل الله شيئاً غيره فيكون ما أنا فيه أعظم عندي من سبعين حجة.

ويروى عن بعضهم قال: غزوت في البحر فعرض بعضنا مخللة، فقلت أشتريها فأنتفع بها في غزوي فإذا دخلت مدينة كذا بعثها فربحت فيها، فاشتريتها فرأيت تلك الليلة في النوم كأن شخصين قد نزلا من السماء فقال أحدهما لصاحبه: اكتب الغزاة، فأملني عليه، خرج فلان متنزهاً وفلان مرثياً وفلان تاجراً وفلان في سبيل الله، ثم نظر إلي وقال: اكتب فلان خرج تاجراً، فقلت: الله الله في أمري ما خرجت أتجر وما معي تجارة أتجر فيها ما خرجت إلا للغزو، فقال: يا شيخ قد اشتريت أمس مخللة تريد أن تربح فيها فبكيك وقلت: لا فكتبوني تاجراً فنظر إلي صاحبه وقال ما ترى؟ فقال: أكتب خرج فلان غازياً إلا أنه اشترى في طريقه مخللة ليربح فيها حتى يحكم الله عز وجل فيه بما يرى. وقال سري السقطي رحمه الله تعالى: لأن تصلي ركعتين في خلوة تخلصهما خير لك من أن تكتب سبعين حديثاً أو سبعمئة بعلو.

وقال بعضهم: في إخلاص ساعة نجاة الأبد ولكن الإخلاص عزيز. ويقال: العلم بذر والعمل زرع وماؤه الإخلاص. وقال بعضهم: إذا أبغض الله عبداً أعطاه ثلاثاً ومنعه ثلاثاً أعطاه صحبة الصالحين ومنعه القبول منهم وأعطاه الأعمال الصالحة ومنعه الإخلاص فيها وأعطاه الحكمة ومنعه الصدق فيها. وقال السوسي: مراد الله من عمل الخلائق الإخلاص فقط. وقال الجنيد: إن لله عبداً عقلوا فلما عقلوا عملوا فلما عملوا أخلصوا فاستدعاهم الإخلاص إلى أبواب البر أجمع.

وقال محمد بن سعيد المروزي: الأمر كله يرجع إلى أصلين: فعل منه بك، وفعل منك له، فترضى ما فعل وتخلص فيما تعمل. فإذا أنت سعدت بهذين وفزت في الدارين. بيان حقيقة الإخلاص:

اعلم أن كل شيء يتصور أن يشوبه غيره، فإذا صفا عن شوبه وخلص عنه سمي خالصاً ويسمى الفعل المصفى المخلص: إخلاصاً. قال الله تعالى: ﴿مِنْ بَيْنِ قَوْمٍ وَمِنْ بَيْنِ قَوْمٍ خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّرِيبِينَ﴾ [النحل: ٦٦] فإنما خلوص اللبن أن لا يكون فيه شوب من الدم والفوت ومن كل ما يمكن أن يمتزج به، والإخلاص يضادّه الإشراف، فمن ليس مخلصاً فهو مشرك إلا أن الشرك درجات، فالإخلاص في التوحيد يضادّه التشريك في الإلهية. والشرك، منه خفي ومنه جلي، وكذا الإخلاص. والإخلاص وضده يتواردان على القلب فمحله القلب وإنما يكون ذلك في

القصود والنيات.

وقد ذكر حقيقة النية وأنها ترجع إلى إجابة البواعث، فمهما كان الباعث واحد على التجرد سمي الفعل الصادر عنه إخلاصًا بالإضافة إلى المنوي، فمن تصدَّق ورضه محض الرياء فهو مخلص، ومن كان غرضه محض التقرب إلى الله تعالى فهو مخلص. ولكن العادة جارية بتخصيص اسم الإخلاص بتجريد قصد التقرب إلى الله تعالى عن جميع الشوائب، كما أنَّ الإلحاد عبارة عن الميل ولكن خصصته العادة بالميل عن الحق، ومن كان باعته مجرد الرياء فهو معرض للهلاك ولسنا نتكلم فيه إذ قد ذكرنا ما يتعلق به في كتاب الرياء من ربيع المهلكات وأقل أموره ما ورد في الخبر من: «لأنَّ المُرَائِي يُدْعَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِأَرْبَعِ أَسْمَاءٍ: يَا مُرَائِي يَا مُخَادِعُ يَا مُشْرِكُ يَا كَافِرٌ»^(١).

وإنما نتكلم الآن فيمن انبعث لقصد التقرب ولكن امتزج بهذا الباعث باعث آخر إما من الرياء أو من غيره من حظوظ النفس. ومثال ذلك أن يصوم لينتفع بالحماية الحاصلة بالصوم مع قصد التقرب. أو يعتقد عبدًا ليتخلص من مؤنته وسوء خلقه، أو يحج ليصح مزاجه بحركة السفر، أو يتخلص من شر يعرض له في بلده، أو ليهرب عن عدو له في منزله، أو يتبرم بأهله وولده، أو يشغل هو فيه فأراد أن يستريح منه أيامًا. أو ليفزرو وليمارس الحرب ويتعلم أسبابه ويقدر به على تهيئة العساكر وجرها. أو يصلي بالليل وله غرض في دفع النعاس عن نفسه به ليراقب أهله أو رحله. أو يتعلم العلم ليسهل عليه طلب ما يكفيه من المال أو ليكون عزيزًا بين العشيرة، أو ليكون عقاره أو ماله محروسًا بعز العلم عن الأطماع.

أو اشتغل بالدرس والوعظ ليتخلص عن كرب الصمت ويتفرج بلذة الحديث. أو تكفل بخدمة العلماء الصوفية لتكون حرمة وافرة عندهم وعند الناس، أو لينال به رفقًا في الدنيا. أو كتب مصحفًا ليجوّد بالمواظبة على الكتابة خطه.

أو حج ماشيًا ليخفف عن نفسه الكراء. أو توضع ليتنظف أو يتبرد. أو اغتسل لتطيب رائحته.

أو روى الحديث ليعرف بعلو الإسناد أو اعتكف في المسجد ليخفف كراء المسكن. أو صام ليخفف عن نفسه التردد في طبخ الطعام أو ليتفرغ لأشغاله فلا يشغله الأكل عنها. أو تصدَّق على السائل ليقطع إبرامه في السؤال عن نفسه. أو يعود مريضًا ليعاد إذا مرض. أو يشيع جنازة ليشيع جنائز أهله أو يفعل شيئًا من ذلك ليعرف بالخير ويذكر به وينظر إليه بعين الصلاح والوقار، فمهما كان باعته هو التقرب إلى الله تعالى ولكن انضاف إليه خطرة من هذه

(١) حديث: «إن المرائي يدعى يوم القيامة بأربع أسماء: يا مرائي يا مخادع يا مشرك يا كافر». أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب السنة والإخلاص وقد تقدم.

الخطرات، حتى صار العمل أخف عليه بسبب هذه الأمور، فقد خرج عمله عن حدّ الإخلاص وخرج عن أن يكون خالصاً لوجه الله تعالى وتطرق إليه الشرك. وقد قال تعالى: «أَنَا أَعْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشُّرِكَةِ».

وبالجملة؛ كل حظ من حظوظ الدنيا تستريح إليه النفس ويميل إليه القلب قل أم كثر إذا تطرق إلى العمل تكدر به صفوه وزال به إخلاصه. والإنسان مرتبط في حظوظه منغمس في شهواته قلما ينفك فعل من أفعاله وعبادة من عباداته عن حظوظ وأغراض عاجلة من هذه الأجناس.

فلذلك قيل: من سلم له من عمره لحظة واحدة خالصة لوجه الله نجا. وذلك لعزة الإخلاص وعسر تنقية القلب عن هذه الشوائب، بل الخالص هو الذي لا باعث عليه إلا طلب القرب من الله تعالى. وهذه الحظوظ إن كانت هي الباعثة، وحدها فلا يخفى شدة الأمر على صاحبه فيها، وإنما نظرنا فيما إذا كان القصد الأصلي هو التقرب وانضافت إليه هذه الأمور، ثم هذه الشوائب إما أن تكون في رتبة الموافقة أو في رتبة المشاركة أو في رتبة المعاونة كما سبق في النية وبالجملة؛ فإما أن يكون الباعث النفسي مثل الباعث الديني أو أقوى منه أو أضعف، ولكل واحد حكم آخر كما سنذكره وإنما الإخلاص تخليص العمل عن هذه الشوائب كلها قليلاً وكثيراً حتى يتجرد فيه قصد التقرب فلا يكون فيه باعث سواه. وهذا لا يتصور إلا من محب لله مستهتر بالله مستغرق الهم بالآخرة بحيث لم يبق لحب الدنيا في قلبه قرار حتى لا يحب الأكل والشرب أيضاً، بل تكون رغبته فيه كرهته في قضاء الحاجة من حيث إنه ضرورة الجبلة، فلا يشتهي الطعام لأنه طعام بل لأنه يقويه على عبادة الله تعالى، ويتمنى أن لو كفي شر الجوع حتى لا يحتاج إلى الأكل فلا يبقى في قلبه حظ من الفضول الزائدة على الضرورة، ويكون قدر الضرورة مطلوباً عنده لأنه ضرورة دينه فلا يكون له هم إلا الله تعالى.

فمثل هذا الشخص لو أكل أو شرب أو قضى حاجته كان خالص العمل صحيح النية في جميع حركاته وسكناته، فلو نام مثلاً حتى يريح نفسه ليتقوى على العبادة بعده كان نومه عبادة وكان له درجة المخلصين فيه، ومن ليس كذلك فباب الإخلاص في الأعمال مسدود عليه إلا على الندور، وكما أن من غلب عليه حب الله وحب الآخرة فاكتسبت حركاته الاعتيادية صفة همه وصارت إخلاصاً، فالذي يغلب على نفسه: الدنيا والعلو والرئاسة وبالجملة غير الله فقد اكتسبت جميع حركاته تلك الصفة، فلا تسلم له عباداته من صوم وصلاة وغير ذلك إلا نادراً. فإذا علاج الإخلاص كسر حظوظ النفس وقطع الطمع عن الدنيا والتجرد للآخرة بحيث يغلب ذلك على القلب، فإذا ذلك يتيسر الإخلاص.

وكم من أعمال يتعب الإنسان فيها ويظن أنها خالصة لوجه الله ويكون فيها مغرور لأنه لا

يرى وجه الآفة فيها كما حكى عن بعضهم أنه قال قضيت صلاة ثلاثين سنة كنت صليتها في المسجد في الصف الأول لأنني تأخرت يوماً لعذر فصليت في الصف الثاني فاعترتني خجلة من الناس حيث رأوني في الصف الثاني، فعرفت أنّ نظر الناس إليّ في الصف الأول كان مسرتي وسبب استراحة قلبي من حيث لا أشعر.

وهذا دقيق غامض قلما تسلم الأعمال من أمثاله وقل من يتنبه له إلا من وفقه الله تعالى، والغافلون يرون حسناتهم كليهما في الآخرة سيئات وهم المرادون بقوله تعالى: ﴿وَبَدَأَ لَهُمْ مِنِ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ﴿٧﴾ وَيَدَأَ لَهُمْ سَيِّئَاتٍ مَا كَسَبُوا ﴿٨﴾﴾ [الزمر: ٧-٨]، وبقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾﴾ [الكهف: ١٠٣-١٠٤]، وأشد الخلق تعرضاً لهذه الفتنة العلماء، فإن الباعث للأكثرين على نشر العلم لذة الاستيلاء والفرح بالاستتباع والاستبشار بالحمد والثناء، والشيطان يلبس عليهم ذلك ويقول: غرضكم نشر دين الله والنضال عن الشرع الذي شرعه رسول الله ﷺ وترى الواعظ يمين على الله تعالى بنصيحة الخلق ووعظه للسلاطين ويفرح بقبول الناس قوله وإقبالهم عليه، وهو يدعي أنه يفرح بما يسر له من نصرة الدين ولو ظهر من أقرانه من هو أحسن منه وعظماً وانصرف الناس عنه وأقبلوا عليه ساءه ذلك وغمه، ولو كان باعته الدين لشكر الله تعالى إذ كفاه الله تعالى هذا المهم بغيره. ثم الشيطان مع ذلك لا يخليه ويقول: إنما غمك لانقطاع الثواب عنك لا لانصراف وجوه الناس عنك إلى غيرك إذ لو اتعظوا بقولك لكنت أنت المثاب واغتمامك لفوات الثواب محمود، ولا يدري المسكين أن انقياده للحق وتسليمه الأمر أفضل وأجزل ثواباً وأعود عليه في الآخرة من انفراده. وليت شعري لو اغتم عمر رضي الله عنه بتصدي أبي بكر رضي الله تعالى عنه للإمامة أكان غمه محموداً أم مذموماً؟ ولا يستريب ذو دين أن لو كان ذلك لكان مذموماً، لأن انقياده للحق وتسليمه الأمر إلى من هو أصلح منه أعود عليه في الدين من تكفله بمصالح الخلق مع ما فيه من الثواب الجزيل، بل فرح عمر رضي الله تعالى عنه باستقلال من هو أولى منه بالأمر. فما بال العلماء لا يفرحون بمثل ذلك؟ وقد ينخدع بعض أهل العلم بغرور الشيطان فيحدث نفسه بأنه لو ظهر من هو أولى منه بالأمر لفرح به، وإخباره بذلك عن نفسه قبل التجربة والامتحان محض الجهل والغرور، فإن النفس سهلة القيادة في الوعد بأمثال ذلك قبل نزول الأمر، ثم إذا دهاه الأمر تغير ورجع ولم يف بالوعد. وذلك لا يعرفه إلا من عرف مكاييد الشيطان والنفس وطال اشتغاله بامتحانها، فمعرفة حقيقة الإخلاص والعمل به بحر عميق يفرق فيه الجميع إلا الشاذ النادر والفرد الفذ وهو المستثنى في قوله تعالى: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ [الحجر: ٤٠]، فليكن العبد شديد التفقد والمراقبة لهذه الدقائق وإلا التحق بأتباع الشياطين وهو لا يشعر.

بيان أقاويل الشيوخ في الإخلاص :

قال السوسي: الإخلاص فقد رؤية الإخلاص، فإن من شاهد في إخلاصه الإخلاص فقد احتاج إخلاصه إلى إخلاص. وما ذكره إشارة إلى تصفية العمل عن العجب بالفعل فإن الالتفات إلى الإخلاص والنظر إليه عجب؛ وهو من جملة الآفات. والخالص: ما صفا عن جميع الآفات، فهذا تعرّض لآفة واحدة. وقال سهل رحمه الله تعالى: الإخلاص أن يكون سكون العبد وحر كاته لله تعالى خاصة، وهذه كلمة جامعة محيططة بالغرّض، وفي معناه قول إبراهيم بن أدهم: الإخلاص صدق النية مع الله تعالى. وقيل لسهل: أي شيء أشدّ على النفس؟ فقال: الإخلاص إذ ليس لها فيه نصيب. وقال رويم: الإخلاص في العمل هو أن لا يريد صاحبه عليه عوضاً في الدارين.

وهذا إشارة إلى أنّ حظوظ النفس آفة آجلاً وعاجلاً، والعابد لأجل التنعم بالشهوات في الجنة معلول، بل الحقيقة أن لا يراد بالعمل إلا وجه الله تعالى وهو إشارة إلى إخلاص الصديقيين وهو الإخلاص المطلق. فأما من يعمل لرجاء الجنة وخوف النار فهو مخلص بالإضافة إلى الحظوظ العاجلة وإلا فهو في طلب حظ البطن والفرج، وإنما المطلوب الحق لذوي الأبواب وجه الله تعالى فقط، وهو القائل لا يتحرّك الإنسان إلا لحظ، والبراءة من الحظوظ صفة الإلهية، ومن ادعى ذلك فهو كافر. وقد قضى القاضي أبو بكر الباقلاني بتكفير من يدعي البراءة من الحظوظ وقال: هذا من صفات الإلهية وما ذكره حق، ولكن القوم إنما أرادوا به انبراء عما يسميه الناس حظوظاً، وهو الشهوات الموصوفة في الجنة فقط، فأما التلذذ بمجرد المعرفة والمناجاة والنظر إلى وجه الله تعالى فهذا حظ هؤلاء، وهذا لا يعدّه الناس حظاً بل يتعجبون منه.

وهؤلاء لو عوّضوا عما هم فيه من لذة الطاعة والمناجاة وملازمة السجود للحضرة الإلهية سرّاً وجهراً جميع نعيم الجنة لاستحقرّوه ولم يلتفتوا إليه؛ فحركاتهم لحظ وطاعتهم لحظ ولكن حظهم معبودهم فقط دون غيره. وقال أبو عثمان: الإخلاص نسيان رؤية الخلق بدوام النظر إلى الخالق فقط. وهذا إشارة إلى آفة الرياء فقط؛ ولذلك قال بعضهم: الإخلاص في العمل أن لا يطلع عليه شيطان فيفسده ولا ملك فيكتبه؛ فإنه إشارة إلى مجرد الإخفاء. وقد قيل: الإخلاص ما استتر عن الخلق وصفا عن العلائق. وهذا أجمع للمقاصد. وقال المحاسبى: الإخلاص هو إخراج الخلق عن معاملة الرب. وهذا إشارة إلى مجرد نفي الرياء. وكذلك قول الخواص: من شرب من كأس الرئاسة فقد خرج عن إخلاص العبودية.

وقال الحواريون لعيسى عليه السلام: ما الخالص من الأعمال؟ فقال: الذي يعمل لله تعالى لا يحب أن يحمده عليه أحد. وهذا أيضاً تعرّض لترك الرياء وإنما خصه بالذكر لأنه أقوى الأسباب المشوّشة للإخلاص. وقال الجنيد: الإخلاص تصفية العمل من الكدورات.

وقال الفضيل: ترك العمل من أجل الناس رياء، والعمل من أجل الناس شرك، والإخلاص أن يعافيك الله منهما. وقيل: الإخلاص دوام المراقبة ونسيان الحفظ كلها. وهذا هو البيان الكامل والأقويل في هذا كثيرة ولا فائدة في تكثير النقل بعد انكشاف الحقيقة.

وإنما البيان الشافي بيان سيد الأولين والآخرين ﷺ إذ سئل عن الإخلاص فقال: «أن تقول ربي الله ثم تستقيم كما أمرت»^(١). أي لا تعبد هواك ونفسك ولا تعبد إلا ربك وتستقيم في عبادته كما أمرت وهذا إشارة إلى قطع ما سوى الله عن مجرى النظر وهو الإخلاص حقاً.

بيان درجات الشوائب الآفات المكدرة للإخلاص:

اعلم أن الآفات المشوشة للإخلاص بعضها جلي وبعضها خفي وبعضها ضعيف مع الجلاء وبعضها قوي مع الخفاء، ولا يفهم اختلاف درجاتها في الخفاء والجلاء إلا بمثال. وأظهر مشوشات الإخلاص الرياء فلنذكر منه مثلاً.

فنقول: الشيطان يدخل الآفة على المصلي مهما كان مخلصاً في صلاته؛ ثم نظر إليه جماعة أو دخل عليه داخل فيقول له: حسن صلاتك حتى ينظر إليك هذا الحاضر بعين الوقار والصلاح ولا يزدريك ولا يغتابك فتخشع جوارحه، وتسكن أطرافه، وتحسن صلاته؛ وهذا هو الرياء الظاهر؛ ولا يخفى ذلك على المبتدئين من المريدين.

الدرجة الثانية: يكون المريد قد فهم هذه الآفة وأخذ منها حذره فصار لا يطيع الشيطان فيها ولا يلتفت إليه ويستمر في صلاته كما كان. فيأتيه في معرض الخير ويقول: أنت متبوع ومقتدى بك ومنظور إليك وما تفعله يؤثر عنك ويتأسى بك غيرك، فيكون لك ثواب أعمالهم إن احسنت وعليك الوزر إن أسأت، فأحسن عملك بين يديه فعساه يقتدى بك في الخشوع وتحسين العبادة وهذا أغمض من الأول وقد ينخدع به من لا ينخدع بالأول، وهو أيضاً عين الرياء ومبطل للإخلاص، فإنه إن كان يرى الخشوع وحسن العبادة خيراً لا يرضى لغيره تركه فلم لم يرتض لنفسه ذلك في الخلوة ولا يمكن أن تكون نفس غيره أعز عليه من نفسه؟ فهذا محض التلبس، بل المقتدى به هو الذي استقام في نفسه واستنار قلبه فانتشر نوره إلى غيره فيكون له ثواب عليه فأما هذا فمحض النفاق والتلبس، فمن اقتدى به أثيب عليه وأما هو فيطالب بتلبسه ويعاقب على إظهاره من نفسه ما ليس متصفاً به.

الدرجة الثالثة: وهي أدق مما قبلها؛ أن يجرب العبد نفسه في ذلك ويتنبه لكيد الشيطان ويعلم أن مخالفته بين الخلوة والمشاهدة للغير محض الرياء، ويعلم أن الإخلاص في أن تكون

(١) حديث: سئل عن الإخلاص فقال: «أن تقول: ربي الله ثم تستقيم كما أمرت». لم أره بهذا اللفظ وللمزمذني وصححه وابن ماجه من حديث سفيان بن عبد الله الثقفي قلت: يا رسول الله حدثني بأمر أعنتصم به قال: «قل ربي الله ثم استقم». وهو عند مسلم بلفظ: قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً بعدك قال «قل آمنت بالله ثم استقم»، [مسلم: ٣٨].

صلاته في الخلوة مثل صلته في الملاء، ويستحيي من نفسه ومن ربه أن يتخضع لمشاهدة خلقه تخشعًا زائدًا على عادته، فيقبل على نفسه في الخلوة ويحسن صلته على الوجه الذي يرتضيه في الملاء، ويصلي في الملاء أيضًا كذلك. فهذا أيضًا من الرياء الغامض لأنه حسن صلته في الخلوة لتحسن في الملاء فلا يكون قد فرق بينهما، فالتفاتة في الخلوة والملاء إلى الخلق. بل الإخلاص أن تكون مشاهدة البهائم لصلاته ومشاهدة الخلق على وتيرة واحدة، فكأنّ نفس هذا ليست تسمح بإساءة الصلاة بين أظهر الناس ثم يستحي من نفسه أن يكون في صورة المرائين، ويظن أن ذلك يزول بأن تستوي صلته في الخلا والملا وهيئات بل زوال ذلك بأن لا يلتفت إلى الخلق كما لا يلتفت إلى الجمادات في الخلا والملا جميعًا، وهذا من شخص مشغول الهم بالخلق في الملا والخلا جميعًا، وهذا من المكاييد الخفية للشيطان.

الدرجة الرابعة: وهي أدق وأخفى؛ أن ينظر إليه الناس وهو في صلته فيعجز الشيطان عن أن يقول له: اخشع لأجلهم، فإنه قد عرف أنه قد تفتن لذلك فيقول له الشيطان: تفكر في عظمة الله تعالى وجلاله ومن أنت واقف بين يديه واستحي من أن ينظر الله إلى قلبك وهو غافل عنه، فيحضر بذلك قلبه وتخشع جوارحه ويظن أن ذلك عين الإخلاص وهو عين المكر والخداع، فإنّ خشوعه لو كان لنظره إلى جلالة لكانت هذه الخطرة تلازمه في الخلوة ولكان لا يختص حضورها بحاجة حضور غيره، وعلامة الأمن من هذه الآفة أن يكون هذا الخاطر مما يألفه في الخلوة كما يألفه في الملاء، ولا يكون حضور الغير هو السبب في حضور الخاطر كما لا يكون حضور البهيمة سببًا فما دام يفرق في أحواله بين مشاهدة إنسان ومشاهدة بهيمة فهو بعد خارج عن صفو الإخلاص مدنس الباطن بالشرك الخفي من الرياء، وهذا الشرك أخفى في قلب ابن آدم من دبيب النملة السوداء في الليلة الظلماء على الصخرة الصماء^(١).

كما ورد في الخبر، ولا يسلم من الشيطان إلا من دق نظره وسعد بعصمة الله تعالى وتوفيقه وهدايته، وإلا فالشيطان ملازم للمتشمريين لعبادة الله تعالى لا يغفل عنهم لحظة حتى يحملهم على الرياء في كل حركة من الحركات حتى في كحل العين وقص الشارب وطيب يوم الجمعة ولبس الثياب، فإنّ هذه سنن في أوقات مخصوصة وللنفس فيها حظ خفي لارتباط نظر الخلق بها ولاستناس الطبع بها، فيدعوه الشيطان إلى فعل ذلك ويقول هذه سنة لا ينبغي أن تتركها، ويكون انبعاث القلب باطنًا لها لأجل تلك الشهوة الخفية، أو مشوبة بها شوبًا يخرج عن حدّ الإخلاص بسببه، وما لا يسلم عن هذه الآفات كلها فليس بخالص، بل من يعتكف في مسجد معمور نظيف حسن العمارة يأنس إليه الطبع فالشيطان يرغبه فيه ويكثر عليه من فضائل

(١) حديث «الشرك أخفى في قلب ابن آدم من دبيب النملة السوداء في الليلة الظلماء على الصخرة». تقدم في العلم وفي ذم الجاه والرياء.

الاعتكاف، وقد يكون المحرك الخفي في سره هو الأُنس بحسن صورة المسجد واستراحة الطبع إليه، ويتبين ذلك في ميله إلى أحد المسجدين أو أحد الموضوعين إذا كان أحسن من الآخر، وكل ذلك امتزاج بشوائب الطبع وكدورات النفس ومبطل حقيقة الإخلاص لعمرى الغش الذي يمزج بخالص الذهب له درجات متفاوتة. فمنها ما يغلب، ومنها ما يقل لكن يسهل دركه. ومنها ما يدق بحيث لا يدركه إلا الناقد البصير. وغش القلب ودغل الشيطان وخبث النفس أغمض من ذلك وأدق كثيرًا.

ولهذا قيل: ركعتان من عالم أفضل من عبادة سنة من جاهل، وأريد به العالم البصير بدقائق آفات الأعمال حتى يخلص عنها، فإنَّ الجاهل نظره إلى ظاهر العبادة واغتراره بها كنظر السوادي إلى حمرة الدينار المموّه واستدارته وهو مغشوش زائف في نفسه، وقيراط من الخالص الذي يرتضيه الناقد البصير خير من دينار يرتضيه الغرّ الغبي. فهكذا يتفاوت أمر العبادات بل أشدّ وأعظم. ومداخل الآفات المتطرفة إلى فنون الأعمال لا يمكن حصرها وإحصائها فلينتفع بما ذكرناه مثلاً، والفظن يغنيه القليل عن الكثير والبليد لا يغنيه التطويل أيضًا فلا فائدة في التفصيل.

بيان حكم العمل المشوب واستحقاق الثواب به :

اعلم أنّ العمل إذا لم يكن خالصًا لوجه الله تعالى بل امتزج به شوب من الرياء أو حظوظ النفس فقد اختلف الناس في أنّ ذلك هل يقتضي ثوابًا أم يقتضي عقابًا أم لا يقتضي شيئًا أصلًا فلا يكون له ولا عليه؟ أما الذي لم يرد به إلا الرياء فهو عليه قطعًا وهو سبب العقاب. وأما الخالص لوجه الله تعالى فهو سبب الثواب وإنما النظر في المشوب، وظاهر الأخبار تدل على أنه لا ثواب له (١).

وليس تخلو الأخبار عن تعارض فيه. والذي ينقدح لما فيه والعلم عند الله أن ينظر إلى قدر قوة الباعث. فإن كان الباعث الديني مساويًا للباعث النفسي تقاوما وتساقطا وصار العمل لا له ولا عليه، وإن كان باعث الرياء أغلب وأقوى فهو ليس بنافع وهو مع ذلك مضر ومفض للعقاب. نعم العقاب الذي فيه أخف من عقاب العمل الذي تجرّد للرياء ولم يمتزج به شائبة التقرب. وإن كان قصد التقرب أغلب بالإضافة إلى الباعث الآخر فله ثواب بقدر ما فضل من

(١) الأخبار التي يدل ظاهرها على أن العمل المشوب لا ثواب له قال: وليس تخلو الأخبار عن تعارض. رواه أبو داود من حديث أبي هريرة: أن رجلا قال يا رسول الله رجل يبتغي الجهاد في سبيل الله وهو يبتغي عرضا من عرض الدنيا فقال رسول الله ﷺ: «لا أجر له...» الحديث. وللنسائي من حديث أبي أمامة بإسناد حسن: رأيت رجلا غزا يلتمس الأجر والذكر ما له؟ فقال «لا شيء له» فأعادها - ثلاث مرات - يقول «لا شيء له» ثم قال: «إن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصا وابتغى به وجهه» وللترمذي وقال غريب وابن حبان من حديث أبي هريرة: الرجل يعمل العمل فيسره فإذا اطلع عليه أعجبه قال «له أجران أجر السر وأجر العلانية» وقد تقدم في ذم الجاه والرياء.

قوة الباعث الديني وهذا لقوله تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۗ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧-٨] ولقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يَضْعَفُهَا﴾ [النساء: ٤٠] فلا ينبغي أن يضع قصد الخير، بل إن كان غالباً على قصد الرياء حبط منه القدر الذي يساويه وبقيت زيادة، وإن كان مغلوباً سقط بسببه شيء من عقوبة القصد الفاسد. وكشف الغطاء عن هذا أنّ الأعمال تأثيرها في القلوب بتأكيد صفاتها. فداعية الرياء من المهلكات وإنما غذاء هذا المهلك وقوته العمل على وفقه. وداعية الخير من المنجيات وإنما قوتها بالعمل على وفقها. فإذا اجتمعت الصفتان في القلب فهما متضادتان، فإذا عمل على وفق مقتضى الرياء فقد قوى تلك الصفة، وإذا كان العمل على وفق مقتضى التقرب فقد قوى أيضاً تلك الصفة وأحدهما مهلك والآخر منج، فإن كان تقوية هذا بقدر تقوية الآخر فقد تقاوما. فكان كالمستضر بالحرارة إذا تناول ما يضره ثم تناول من المبردات ما يقاوم قدر قوته، فيكون بعد تناولهما كأنه لم يتناولهما، وإن كان أحدهما غالباً لم يخل الغالب عن أثر، فكما لا يضع ميثقال ذرة من الطعام والشراب والأدوية ولا ينفك عن أثر في الجسد بحكم سنة الله تعالى، فكذلك لا يضع ميثقال ذرة من الخير والشر ولا ينفك عن تأثيره في إنارة القلب أو تسويده وفي تقريبه من الله أو إبعاده، فإذا جاء بما يقربه شبراً مع ما يبعده شبراً فقد عاد إلى ما كان فلم يكن له ولا عليه، وإن كان الفعل مما يقربه شبرين والآخر يبعده شبراً واحداً فضل له لا محالة شبر، وقد قال النبي ﷺ: «أَتَّبِعِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمَحُّهَا»^(١)، فإذا كان الرياء المحض يمحوه الإخلاص المحض عقبه، فإذا اجتمعا جميعاً فلا بدّ وأن يتدافعا بالضرورة. ويشهد لهذا إجماع الأمة على أن من خرج حاجاً ومعه تجارة صح حجه وأُثيب عليه، وقد امتزج به حظ من حظوظ النفس. نعم يمكن أن يقال: إنما يثاب على أعمال الحج عند انتهائه إلى مكة وتجارته غير موقوفة عليه فهو خالص، وإنما المشترك طول المسافة ولا ثواب فيه مهما قصد التجارة. ولكن الصواب أن يقال: مهما كان الحج هو المحرك الأصلي وكان غرض التجارة كالمعين والتابع فلا ينفك نفس السفر عن ثواب ما.

وعندي: أن الغزاة لا يدركون في أنفسهم تفرقة بين غزو الكفار في جهة تكثر فيها الفنائم وبين جهة لا غنيمة فيها، ويعد أن يقال: إدراك هذه التفرقة يحبط بالكلية ثواب جهادهم. بل العدل أن يقال: إذا كان الباعث الأصلي والمزعج القوي هو إعلاء كلمة الله تعالى وإنما الرغبة في الغنيمة على سبيل التبعية فلا يحبط به الثواب. نعم لا يساوي ثوابه ثواب من لا يلتفت قلبه إلى الغنيمة أصلاً؛ فإن هذا الالتفات نقصان لا محالة.

فإن قلت: فالآيات والأخبار تدل على أن شوب الرياء محيط للشواب، وفي معناه شوب

(١) حديث «أَتَّبِعِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمَحُّهَا». تقدم في رياضة النفس وفي التوبة.

طلب الغنيمة والتجارة وسائر الحظوظ فقد روى طاوس وغيره من التابعين: أن رجلاً سأل النبي ﷺ عن مصطنع المعروف أو قال يتصدق فيجب أن يحمد ويؤجر فلم يدر ما يقول له حتى نزلت: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠] (١). وقد قصد الأجر والحمد جميعاً. وروى معاذ عن النبي ﷺ أنه قال: «أذنتي الرياء شرك» (٢)، وقال أبو هريرة قال النبي ﷺ: «يُقَالُ لِمَنْ أَشْرَكَ فِي عَمَلِهِ خُذْ أَجْرَكَ مِمَّنْ عَمِلْتَ لَهُ» (٣). وروى عن عبادة: «أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ: أَنَا أَعْنَى الْأَعْيَانِ عَنِ الشَّرِكَةِ مَنْ عَمِلَ لِي عَمَلًا فَأَشْرَكَ مَعِيَ غَيْرِي وَدَعَتْ نَصِيْبِي لِشْرِيْكِي» وروى أبو موسى: أن أعرابياً أتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله الرجل يقاتل حمية والرجل يقاتل شجاعة والرجل يقاتل ليرى مكانه فأيهم في سبيل الله فقال ﷺ: «مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةً لِلَّهِ هِيَ الْعُلْيَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ» (٤). وقال عمر رضي الله عنه: تقولون فلان شهيد ولعله أن يكون قد ملأ دفتي راحلته ورقاً. وقال ابن مسعود رضي الله تعالى عنه: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ هَاخَرَ يَبْتَغِي شَيْئًا مِنَ الدُّنْيَا فَهُوَ لَهُ؟» (٥)

فنقول: هذه الأحاديث لا تناقض ما ذكرناه بل المراد بها من لم يرد بذلك إلا الدنيا كقوله: «من هاجر يبتغي شيئاً من الدنيا» وكان ذلك هو الأغلب على همه وقد ذكرنا أن ذلك عصيان وعدوان لا لأن طلب الدنيا حرام ولكن طلبها بأعمال الدين حرام لما فيه من الرياء وتغيير العبادة عن موضعها، وأما لفظ الشركة حيث ورد فمطلق للتساوي، وقد بينا أنه إذا تساوى القصدان تقاوما ولم يكن له ولا عليه، فلا ينبغي أن يرجى عليه ثواب، ثم إن الإنسان عند الشركة أبداً في خطر فإنه لا يدري أي الأمرين أغلب على قصده فربما يكون عليه وبالاً، ولذلك قال تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠] أي لا يرجى اللقاء مع الشركة التي أحسن أحوالها التساقط، ويجوز أن يقال أيضاً: منصب الشهادة لا ينال إلا بالإخلاص في الغزو. وبعيد أن يقال: من كانت داعيته الدينية بحيث تزرعه إلى مجرد الغزو وإن لم يكن غنيمة وقدر على غزو طائفتين من الكفار إحداهما

(١) حديث طاوس وعدة من التابعين: أن رجلاً سأل النبي ﷺ عن مصطنع المعروف - أو قال يتصدق - فيجب أن يحمد ويؤجر فنزلت ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠]. أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب السنة والحاكم نحوه من رواية طاوس مرسلًا وقد تقدم في ذم الجاه والرياء.

(٢) حديث معاذ «أذنتي الرياء شرك». أخرجه الطبراني والحاكم وتقدم.

(٣) حديث أبي هريرة «يقال لمن أشرك في عمله خذ أجرك ممن عملت له». تقدم فيه من حديث محمود بن لبيد بنحوه وتقدم فيه حديث أبي هريرة «من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشريكه» وفي رواية مالك في الموطأ «فهو له كله».

(٤) حديث أبي موسى «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله». تقدم فيه.

(٥) حديث ابن مسعود «من هاجر يبتغي شيئاً من الدنيا فهو له». تقدم في الباب الذي قبله.

غنية والأخرى فقيرة فمال إلى جهة الأغنياء لإعلاء كلمة الله وللغنيمة لا ثواب له على غزوه البتة، ونعوذ بالله أن يكون الأمر كذلك فإن هذا حرج في الدين ومدخل لليأس على المسلمين، لأن أمثال هذه الشوائب التابعة قط لا ينفك الإنسان عنها إلا على الندور، فيكون تأثير هذا في نقصان الثواب، فأما أن يكون في إحباطه فلا.

نعم الإنسان فيه على خطر عظيم لأنه ربما يظن أن الباعث الأقوى هو قصد التقرب إلى الله ويكون الأغلب على سره الحظ النفسي، وذلك مما يخفى غاية الخفاء. فلا يحصل الأجر إلا بالإخلاص والإخلاص قلما يستيقنه العبد من نفسه وإن بالغ في الاحتياط، فلذلك ينبغي أن يكون أبدأ بعد كمال الاجتهاد متردداً بين الرد والقبول خائفاً أن تكون في عبادته آفة يكون وبالها أكثر من ثوابها.

وهكذا كان الخائفون من ذوي البصائر، وهكذا ينبغي أن يكون كل ذي بصيرة. ولذلك قال سفيان رحمه الله: لا أعتد بما ظهر من عملي. وقال عبد العزيز بن أبي رواد: جاورت هذا البيت ستين سنة وحججت ستين حجة فما دخلت في شيء من أعمال الله تعالى إلا وحاسبت نفسي فوجدت نصيب الشيطان أوفى من نصيب الله، ليته لا لي ولا علي. ومع هذا فلا ينبغي أن يترك العمل عند خوف الآفة والرياء فإن ذلك منتهى بغية الشيطان منه إذ المقصود أن لا يفوت الإخلاص.

ومهما ترك العمل فقد ضيع العمل والإخلاص جميعاً.

وقد حكى أن بعض الفقراء كان يخدم أبا سعيد الخراز ويخف في أعماله فتكلم أبو سعيد في الإخلاص يوماً يريد إخلاص الحركات فأخذ الفقير يتفقد قلبه عند كل حركة ويطالبه بالإخلاص فتعذر عليه قضاء الحوائج واستضر الشيخ بذلك، فسأله عن أمره فأخبره بمطالبته نفسه بحقيقة الإخلاص وأنه يعجز عنها في أكثر أعماله فيتركها، فقال أبو سعيد: لا تفعل إذ الإخلاص لا يقطع المعاملة فواظب على العمل واجتهد في تحصيل الإخلاص، فما قلت لك اترك العمل وإنما قلت لك أخلص العمل وقد قال الفضيل: ترك العمل بسبب الخلق رياء وفعله لأجل الخلق شرك.

الباب الثالث في الصدق وفضيلته
وحقيقته

فضيلة الصدق :

قال الله تعالى: ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: ٢٣] وقال النبي ﷺ: «إِنَّ الصُّدْقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ وَالْبِرُّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَصْدُقُ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ صَدِيقًا وَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ وَالْفُجُورُ يَهْدِي إِلَى النَّارِ وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَكْذِبُ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ كَذَّابًا»^(١)، ويكفي في فضيلة الصدق أن الصديق مشتق منه والله تعالى وصف الأنبياء به في معرض المدح والثناء فقال: ﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صَدِيقًا نَبِيًّا﴾ [مريم: ٤١] وقال: ﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا﴾ [مريم: ٥٤] وقال تعالى: ﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صَدِيقًا نَبِيًّا﴾ [مريم: ٥٦] وقال ابن عباس: أربع من كن فيه فقد ربح؛ الصدق والحياء وحسن الخلق والشكر. وقال بشر بن الحارث: من عامل الله بالصدق استوحش من الناس. وقال أبو عبد الله الرملي رأيت منصور الدينوري في المنام فقلت له: ما فعل الله بك؟ قال: غفر لي ورحمني وأعطاني ما لم أؤمل، فقلت له: أحسن ما توجه العبد به إلى الله ماذا؟ قال: الصدق وأقبح ما توجه به الكذب. وقال أبو سليمان: اجعل الصدق مطيتك والحق سيفك والله تعالى غاية طلبتك. وقال رجل لحكيم: ما رأيت صادقًا فقال له: لو كنت صادقًا لعرفت الصادقين. وعن محمد بن علي الكتاني قال: وجدنا دين الله تعالى مبنيا على ثلاثة أركان؛ على الحق والصدق والعدل، فالحق على الجوارح والعدل على القلوب والصدق على العقول. وقال الثوري في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ أَلْقَيْمَةَ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ﴾ [الزمر: ٦٠] قال: هم الذين ادعوا محبة الله تعالى ولم يكونوا بها صادقين. وأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام: يا داود من صدقني في سريره صدقته عند المخلوقين في علانيته. وصاح رجل في مجلس الشبلي ورمى نفسه في دجلة، فقال الشبلي: إن كان صادقًا فالله تعالى ينجيه كما نجى موسى عليه السلام وإن كان كاذبًا فالله تعالى يفرقه كما أغرق فرعون.

وقال بعضهم: أجمع الفقهاء والعلماء على ثلاث خصال أنها إذا صحت ففيها النجاة ولا يتم بعضها إلا ببعض الإسلام الخالص عن البدعة والهوى، والصدق لله تعالى في الأعمال، وطيب المطعم.

وقال وهب بن منبه: وجدت على حاشية التوراة اثنين وعشرين حرفًا كان صلحاء بني

(١) صحيح: حديث «إن الصدق يهدي إلى البر والبر يهدي إلى الجنة». متفق عليه من حديث ابن مسعود وقد تقدم.

إسرائيل يجتمعون فيقرؤونها ويتدارسونها: لا كنز أنفع من العلم، ولا مال أربح من الحلم، ولا حسب أوضع من الغضب، ولا قرين أزين من العمل، ولا رفيق أشين من الجهل، ولا شرف أعز من التقوى، ولا كرم أوفى من ترك الهوى، ولا عمل أفضل من الفكر، ولا حسنة أعلى من الصبر، ولا سيئة أخزى من الكبر، ولا دواء ألين من الرفق ولا داء أوجع من الخرق، ولا رسول أعدل من الحق، ولا دليل أنصح من الصدق، ولا فقر أذل من الطمع، ولا غنى أشقى من الجمع، ولا حياة أطيب من الصحة، ولا معيشة أهنأ من العفة، ولا عبادة أحسن من الخشوع، ولا زهد خير من القنوع، ولا حارس أحفظ من الصمت، ولا غائب أقرب من الموت. وقال محمد بن سعيد المروزي: إذا طلبت الله بالصدق آتاك الله تعالى مرآة بيدك حتى تبصر كل شيء من عجائب الدنيا والآخرة.

وقال أبو بكر الوراق: احفظ الصدق فيما بينك وبين الله تعالى والرفق فيما بينك وبين الخلق. وقيل لذي النون: هل للعبد إلى صلاح أموره سبيل؟ فقال:

قد بقينا من الذنوب حيارى نطلب الصدق ما إليه سبيلُ
فدعاوى الهوى تخف علينا وخلاف الهوى علينا ثقیلُ

وقيل لسهل: ما أصل هذا الأمر الذي نحن عليه؟ فقال: الصدق والسخاء والشجاعة. فقيل: زدنا، فقال: التقى والحياء وطيب الغذاء. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: أن النبي ﷺ سئل عن الكمال فقال: «قَوْلُ الْحَقِّ وَالْعَمَلُ بِالصِّدْقِ»^(١)، وعن الجنيد في قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَلِّمَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٨]: قال: يسأل الصادقين عند أنفسهم عن صدقهم عند ربهم، وهذا أمر على خطر.

بيان حقيقة الصدق ومعناه ومراتبه:

اعلم أن لفظ الصدق يستعمل في ستة معان: صدق في القول، وصدق في النية والإرادة، وصدق في العزم، وصدق في الوفاء بالعزم، وصدق في العمل، وصدق في تحقيق مقامات الدين كلها، فمن اتصف بالصدق في جميع ذلك فهو صديق لأنه مبالغة في الصدق. ثم هم أيضًا على درجات فمن كان له حظ في الصدق في شيء من الجملة فهو صادق بالإضافة إلى ما فيه صدقه.

الصدق الأول: صدق اللسان وذلك لا يكون إلا في الإخبار أو فيما يتضمن الإخبار وبينه عليه، والخبر إما أن يتعلق بالماضي أو بالمستقبل، وفيه يدخل الوفاء بالوعد والخلف فيه. وحق على كل عبد أن يحفظ ألفاظه فلا يتكلم إلا بالصدق، وهذا هو أشهر أنواع الصدق وأظهرها. فمن حفظ لسانه عن الإخبار عن الأشياء على خلاف ما هي عليه فهو صادق ولكن لهذا

(١) حديث ابن عباس: سئل عن الكمال فقال: قول الحق والعمل بالصدق. لم أجده بهذا اللفظ.

الصدق كمالان:

أحدهما: الاحتراز عن المعارض؛ فقد قيل: في المعارض مندوحة عن الكذب وذلك لأنها تقوم مقام الكذب، إذ المحذور من الكذب تفهيم الشيء على خلاف ما هو عليه في نفسه، إلا أن ذلك مما تمس إليه الحاجة وتقتضيه المصلحة في بعض الأحوال وفي تأديب الصبيان والنسوان ومن يجري مجراهم وفي الحذر عن الظلمة وفي قتال الأعداء والاحتراز عن اطلاعهم على أسرار الملك، فمن اضطرَّ إلى شيء من ذلك فصدقه فيه أن يكون نطقه فيه لله فيما يأمره الحق به ويقتضيه الدين، فإذا نطق به فهو صادق وإن كان كلامه مفهوماً غير ما هو عليه، لأنَّ الصدق ما أريد لذاته بل للدلالة على الحق والدعاء إليه فلا ينظر إلى صورته بل إلى معناه، نعم في مثل هذا الموضع ينبغي أن يعدل إلى المعارض ما وجد إليه سبيلاً، كان رسول الله ﷺ إذا توجه إلى سفر ورى بغيره^(١)، وذلك كي لا ينتهي الخبر إلى الأعداء فيقصد، وليس هذا من الكذب في شيء، قال رسول الله ﷺ: «لَيْسَ بِكَذَّابٍ مَنْ أَصْلَحَ بَيْنَ اثْنَيْنِ فَقَالَ خَيْرًا أَوْ أَنْعَى خَيْرًا»^(٢)، ورخص في النطق على وفق المصلحة في ثلاثة مواضع: من أصلح بين اثنين، ومن كان له زوجتان، ومن كان في مصالح الحرب. والصدق هاهنا يتحوّل إلى النية فلا يراعى فيه إلا صدق النية وإرادة الخير، فمهما صح قصده وصدقت نيته وتجرّدت للخير إرادته صار صادقاً وصديقاً كيفما كان لفظه، ثم التعريض فيه أولى. وطريقه ما حكي عن بعضهم، أنه كان يطلبه بعض الظلمة وهو في داره فقال لزوجته: خطي بأصبعك دائرة وضعي الأصبع على الدائرة وقولي ليس هو هاهنا، واحترز بذلك عن الكذب ودفع الظالم عن نفسه، فكان قوله صدق وأفهم الظالم أنه ليس في الدار. فالكمال الأول في اللفظ أن يحترز عن صريح اللفظ وعن المعارض أيضاً إلا عند الضرورة.

والكمال الثاني: أن يراعى معنى الصدق في ألفاظه التي ينادي بها ربه كقوله: ﴿وَجَهْتُ وَجْهِي لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [الأنعام: ٧٩] فإن قلبه إن كان منصرفاً عن الله تعالى مشغولاً بأمانى الدنيا وشهواته فهو كذب. وكقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفاطحة: هـ] وقوله: أنا عبد الله، فإنه إذا لم يتصف بحقيقة العبودية وكان له مطلب سوى الله لم يكن كلامه صادقاً، ولو طولب يوم القيامة بالصدق في قوله: أنا عبد الله، لعجز تحقيقه فإنه إن كان عبداً لنفسه أو عبداً لدنيا أو عبداً لشهواته لم يكن صادقاً في قوله.

وكل ما تقيّد العبد به فهو عبد له كما قال عيسى عليه السلام: يا عبید الدنيا وقال نبینا

(١) صحيح: حديث كان إذا أراد سفراً ورى بغيره. متفق عليه من حديث كعب بن مالك، [البخاري: ٢٩٤٨، مسلم: ٢٦٣٧].

(٢) حديث «ليس بكذاب من أصلح بين اثنين فقال خيراً أو أئمى خيراً». متفق عليه من حديث أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط وقد تقدم.

عَبْدُ الدِّينَارِ تَعَسَ عَبْدُ الدَّرْهَمِ وَعَبْدُ الحُلَّةِ وَعَبْدُ الحَمِيصَةِ»^(١)، فسمي كل من تقيد قلبه بشيء عبدًا له.

وإنما العبد الحق لله عز وجل من أعتق أولًا من غير الله تعالى فصار حرًا مطلقًا، فإذا تقدّمت هذه الحرّية صار القلب فارغًا فحلت فيه العبودية لله فتشغله بالله وبمحبتة وتقيد باطنه وظاهره بطاعته فلا يكون له مراد إلا الله تعالى، ثم تجاوز هذا إلى مقام آخر أسنى منه يسمى الحرّية وهو أن يعتق أيضًا عن إرادته لله من حيث هو بل يقنع بما يريد الله له من تقريب أو إبعاد فتفنى إرادته في إرادة الله تعالى. وهذا عبد عتق عن غير الله فصار حرًا، ثم عاد وعتق عن نفسه فصار حرًا. وصار مفقودًا لنفسه موجودًا لسيدته ومولاه إن حرّكه تحرك وإن سكنه سكن وإن ابتلاه رضي، لم يبق فيه متسع لطلب والتماس واعتراض، بل هو بين يدي الله كالमित بين يدي الغاسل وهذا منتهى الصدق في العبودية لله تعالى. فالعبد الحق هو الذي وجوده لمولاه لا لنفسه وهذه درجة الصديقين. وأما الحرّية عن غير الله فدرجات الصادقين، وبعدها تتحقق العبودية لله تعالى، وما قبل هذا فلا يستحق صاحبه أن يسمى صادقًا ولا صديقًا: فهذا هو معنى الصدق في القول.

الصدق الثاني: في النية والإرادة ويرجع ذلك إلى الإخلاص وهو أن لا يكون له باعث في الحركات والسكنات إلا الله تعالى، فإن ما زجه شوب من حظوظ النفس بطل صدق النية وصاحبه يجوز أن يسمى كاذبًا كما روينا في فضيلة الإخلاص من حديث الثلاثة حين يسأل العالم ما عملت فيما علمت؟ فقال: فعلت كذا وكذا، فقال الله تعالى: كذبت بل أردت أن يقال فلان عالم فإنه^(٢) لم يكذبه ولم يقل له لم تعمل ولكنه كذبه في إرادته ونيته. وقد قال بعضهم: الصدق صحة التوحيد في القصد. وكذلك قول الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ كَكَاذِبُونَ﴾ [المنافقون: ١] وقد قالوا إنك لرسول الله وهذا صدق، ولكن كذبهم لا من حيث نطق اللسان بل من حيث ضمير القلب وكان التكذيب يتطرق إلى الخبر.

وهذا القول يتضمن إخبارًا بقرينة الحال إذ صاحبه يظهر من نفسه أن يعتقد ما يقول فكذب في دلالة بقرينة الحال على ما في قلبه، فإنه كذب في ذلك ولم يكذب فيما يلفظ به، فيرجع أحد معاني الصدق إلى خلوص النية وهو الإخلاص، فكل صادق فلا بد وأن يكون مخلصًا.

الصدق الثالث: صدق العزم؛ فإن الإنسان قد يقدّم العزم على العمل فيقول في نفسه: إن رزقني الله مالًا تصدّقت بجميعة، أو بشرطه، أو إن لقيت عدوًّا في سبيل الله تعالى قاتلت ولم

(١) صحيح: حديث «تعمس عبد الدينار تعمس عبد الدرهم وعبد الحلة وعبد الحميصه». أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة، [البخاري: ٢٨٨٧].

(٢) حديث الثلاثة: حين سأل العالم ماذا علمت فيما علمت؟. تقدم.

أبال وإن قتلت، وإن أعطاني الله تعالى ولاية عدلت فيها ولم أعص الله تعالى بظلم وميل إلى خلق. فهذه العزيمة قد يصادفها من نفسه وهي عزيمة جازمة صادقة، وقد يكون في عزمه نوع ميل وتردد وضعف يضاد الصدق في العزيمة، فكان الصدق هاهنا عبارة عن التمام والقوة كما يقال: لفلان شهوة صادقة.

ويقال: هذا المريض شهوته كاذبة، مهما لم تكن شهوته عن سبب ثابت قوي أو كانت ضعيفة، فقد يطلق الصدق ويراد به هذا المعنى. والصادق والصديق هو الذي تصادف عزمته في الخيرات كلها قوة تامة ليس فيها ميل ولا ضعف ولا تردد: بل تسخو نفسه أبدًا بالعزم المصمم الجازم على الخيرات وهو كما قال عمر رضي الله عنه: لأن أقدم فتضرب عنقي أحب إليّ من أن أتأمر على قوم فيهم أبو بكر رضي الله عنه فإنه قد وجد من نفسه العزم الجازم، والمحبة الصادقة بأنه لا يتأمر مع وجود أبي بكر رضي الله عنه، وأكد ذلك بما ذكره من القتل.

ومراتب الصديقين في العزائم تختلف؛ فقد يصادف العزم ولا ينتهي به إلى أن يرضى بالقتل فيه ولكن إذا خلي ورأيه لم يقدّم، ولو ذكر له حديث القتل لم ينقض عزمه، بل في الصادقين والمؤمنين من لو خير بين أن يقتل هو أو أبو بكر كانت حياته أحب من حياة أبي بكر الصديق.

الصدق الرابع: في الوفاء بالعزم، فإن النفس قد تسخو بالعزم في الحال إذ لا مشقة في الوعد والعزم والمؤنة فيه خفيفة، فإذا حقت الحقائق وحصل التمكن وهاجت الشهوات انحلت العزيمة وغلبت الشهوات ولم يتفق الوفاء بالعزم، وهذا يضاد الصدق فيه، ولذلك قال الله تعالى: ﴿رِبَّالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: ٢٣] فقد روي عن أنس: أن عمه أنس بن النضر لم يشهد بدرًا مع رسول الله ﷺ فشق ذلك على قلبه وقال: أول مشهد شهده رسول الله ﷺ غبت عنه أما والله لئن أراني الله مشهدًا مع رسول الله ﷺ ليرين الله ما أصنع قال: فشهد أحدًا في العام القابل فاستقبله سعد بن معاذ فقال: يا أبا عمرو إلى أين؟ فقال: واهأ لريح الجنة إني أجد ريحها دون أحد. فقاتل حتى قتل فوجد في جسده بضع وثمانون ما بين رمية وضربة وطعنة فقالت أخته بنت النضر: ما عرفت أخي إلا بينانه، فنزلت هذه الآية: ﴿رِبَّالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: ٢٣] (١).

ووقف رسول الله ﷺ على مصعب بن عمير وقد سقط على وجهه يوم أُحد شهيدًا وكان صاحب لواء رسول الله ﷺ فقال عليه السلام: ﴿رِبَّالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ

(١) صحيح: حديث أنس: أن عمه أنس بن النضر لم يشهد بدرًا مع رسول الله ﷺ فشق ذلك على قلبه. أخرجه الترمذي وقال حسن صحيح والنسائي في الكبرى وهو عند البخاري مختصرًا إن هذه الآية نزلت في أنس بن النضير، [البخاري: ٤٠٤٨].

قَصَى نَجَبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ ﴿[الأحزاب: ٢٣]﴾^(١). وقال فضالة بن عبيد: سمعت عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الشهداء أربعة: رجلٌ مؤمنٌ جيدُ الإيمانِ لقي العَدُوَّ، فَصَدَّقَ اللهُ حَتَّى قُتِلَ فَذَلِكَ الَّذِي يَوْعُ النَّاسُ إِلَيْهِ أَغْيَبُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ هَكَذَا، وَرَفَعَ رَأْسَهُ حَتَّى وَقَعَتْ قَلَنْسُوتُهُ قَالَ الرَّاوِي: فلا أدري قلنسوة عمر أو قلنسوة رسول الله ﷺ، وَرَجُلٌ جَيِّدُ الْإِيمَانِ إِذَا لَقِيَ الْعَدُوَّ فَكَأَنَّمَا يُضْرَبُ وَجْهَهُ بِسُوكِ الطَّلْحِ أَنَاهُ سَهْمٌ عَائِرُهُ فَفَقَتَلَهُ فَهُوَ فِي الدَّرَجَةِ الثَّانِيَةِ، وَرَجُلٌ مُؤْمِنٌ خَلَطَ عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا لَقِيَ الْعَدُوَّ فَصَدَّقَ اللهُ حَتَّى قُتِلَ فَذَلِكَ فِي الدَّرَجَةِ الثَّالِثَةِ، وَرَجُلٌ أَشْرَفَ عَلَى نَفْسِهِ لَقِيَ الْعَدُوَّ فَصَدَّقَ اللهُ حَتَّى قُتِلَ فَذَلِكَ فِي الدَّرَجَةِ الرَّابِعَةِ»^(٢)، وقال مجاهد: رجلا نخرج على ملاء من الناس قعود فقالا إن رزقنا الله تعالى مالا لنتصدقن فدخلوا به فنزلت: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهُ لَئِنْ آتَيْنَا مِنْ فَضْلِهِ لَنُصَدِّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [التوبة: ٧٥] وقال بعضهم: إنما هو شيء نووه في أنفسهم لم يتكلموا به فقال: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهُ لَئِنْ آتَيْنَا مِنْ فَضْلِهِ لَنُصَدِّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعَقَبَهُمْ نِقَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ [التوبة: ٧٥-٧٧] فجعل العزم عهدًا وجعل الخلف فيه كذبًا والوفاء به صدقًا. وهذا الصدق أشد من الصدق الثالث، فإن الناس قد تسخروا بالعزم ثم تكعب عند الوفاء لشدة عليها ولهيجان الشهوة عند التمكن وحصول الأسباب. ولذلك استثنى عمر رضي الله عنه فقال: لأن أقدم فتضرب عنقي أحب إلي من أن أتأمر على قوم فيهم أبو بكر. اللهم إلا أن تسؤل لي نفسي عند القتل شيئًا لا أجده الآن لأنني لا آمن أن يثقل عليها ذلك فتتغير عن عزمها. أشار بذلك إلى شدة الوفاء بالعزم. وقال أبو سعيد الخزاز: رأيت في المنام كأن ملكين نزلا من السماء فقالا لي: ما الصدق؟ قلت: الوفاء بالعهد، فقالا لي: صدقت، وعرجا إلى السماء.

الصدق الخامس: في الأعمال، وهو أن يجتهد حتى لا تدل أعماله الظاهرة على أمر في باطنه لا يتصف هو به، لا بأن يترك الأعمال ولكن بأن يستجرب الباطن إلى تصديق الظاهر، وهذا مخالف ما ذكرناه من ترك الرياء لأن المرائي هو الذي يقصد ذلك، ورب واقف على هيئة الخشوع في صلاته ليس يقصد به مشاهدة غيره ولكن قلبه غافل عن الصلاة، فمن ينظر إليه يراه قائمًا بين يدي الله تعالى وهو بالباطن قائم في السوق بين يدي شهوة من شهواته فهذه

(١) حديث: وقف على مصعب بن عمير وقد سقط على وجهه يوم أحد شهيدا وقرأ هذه الآية ﴿مَنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَجَبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ﴾ [الأحزاب: ٢٣-٢٤] أخرجه أبو نعيم في الحلية من رواية عبيد بن عمير مرسلًا.

(٢) ضعيف: حديث فضالة بن عبيد عن عمر بن الخطاب «الشهداء أربعة». أخرجه الترمذي وقال حسن، [الترمذي: ١٦٤٤، وانظر ضعيف الجامع: ٣٤٤٦].

أعمال تعرب بلسان الحال عن الباطن إعرابًا هو فيه كاذب وهو مطالب بالصدق في الأعمال وكذلك قد يمشي الرجل على هيئة السكون والوقار وليس باطنه موصوفًا بذلك الوقار، فهذا غير صادق في عمله وإن لم يكن ملتفتًا إلى الخلق ولا مرائيًا إياهم، ولا ينجو من هذا إلا باستواء السريرة والعلانية بأن يكون باطنه مثل ظاهره أو خيرًا من ظاهره. ومن خيفة ذلك اختار بعضهم تشويش الظاهر ولبس ثياب الأشرار كيلا يظن به الخير بسبب ظاهره فيكون كاذبًا في دلالة الظاهر على الباطن.

إذن مخالفة الظاهر للباطن إن كانت عن قصد سميت رياء ويفوت بها الإخلاص؛ وإن كانت عن غير قصد فيفوت بها الصدق.

ولذلك قال رسول الله ﷺ: «اللَّهُمَّ اجْعَلْ سِرِّي خَيْرًا مِنْ عِلَانِيَّتِي وَاجْعَلْ عِلَانِيَّتِي صَالِحَةً»^(١). وقال يزيد بن الحارث: إذا استوت سريرة العبد وعلانيته فذلك النصف، وإن كانت سريرته أفضل من علانيته فذلك الفضل، وإن كانت علانيته أفضل من سريرته فذلك الجور. وأنشدوا:

فقد عزّ في الدارين واستوجب الثنا	إذا السرّ والإعلان في المؤمن استوى
على سعيه فضلّ سوى الكدّ والعنا	فإن خالف الإعلان سرًا فما له
ومغشوشه المردود لا يقتضي المنا	فما خالص الدينار في السوق نافق

وقال عطية بن عبد الغافر: إذا وافقت سريرة المؤمن علانيته باهى الله به الملائكة يقول هذا عبدي حقًا.

وقال معاوية بن قرة: من يدلني على بكاء بالليل بسّام بالنهار. وقال عبد الواحد بن زيد: كان الحسن إذا أمر بشي كان من أعمل الناس به وإذا نهى عن شيء كان من أترك الناس له. ولم أر أحدًا قط أشبه سريرة بعلانية منه.

وكان أبو عبد الرحمن الزاهد يقول: إلهي عاملت الناس فيما بيني وبينهم بالأمانة، وعاملتك فيما بيني وبينك بالخيانة، ويبكي. وقال أبو يعقوب النهرجوري: الصدق موافقة الحق في السر والعلانية.

فإذن مساواة السريرة للعلانية أحد أنواع الصدق.

الصدق السادس: وهو أعلى الدرجات وأعزها؛ الصدق في مقامات الدين، كالصدق في الخوف والرجاء والتعظيم والزهد والرضا والتوكل والحب وسائر هذه الأمور. فإن هذه الأمور لها مباد ينطلق الاسم بظهورها، ثم لها غايات وحقائق والصادق المحقق من نال حقيقتها، وإذا غلب الشيء وتمت حقيقته سمي صاحبه صادقًا فيه، كما يقال: فلان صدق القتال.

(١) حديث «اللهم اجعل سريري خيرا من علانيتي واجعل علانيتي صالحه». تقدم ولم أجده.

ويقال: هذا هو الخوف الصادق، وهذه هي الشهوة الصادقة. وقال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا﴾ إلى قوله: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحجرات: ١٥] وقال تعالى: ﴿وَلَكِنَّ الْآلِرَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ إلى قوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا﴾ [البقرة: ١٧٧] وسئل أبو ذر عن الإيمان فقرأ هذه الآية فقبل له: سألتك عن الإيمان؟ فقال: سألت رسول الله ﷺ عن الإيمان فقرأ هذه الآية (١).

ولنضرب للخوف مثلاً: فما من عبد يؤمن بالله واليوم الآخر إلا وهو خائف من الله خوفاً ينطلق عليه الاسم، ولكنه خوف غير صادق أي غير بالغ درجة الحقيقة، أما تراه إذا خاف. سلطانياً أو قاطع طريق في سفر كيف يصفر لونه وترتعد فرائضه ويتنغص عليه عيشه ويتعذر عليه أكله ونومه وينقسم عليه فكره، حتى لا ينتفع به أهله وولده، وقد ينزعج عن الوطن فيستبدل بالأنس الوحشة، وبالراحة التعب والمشقة والتعرض للأخطار، كل ذلك خوفاً من درك المحذور. ثم إنه يخاف النار ولا يظهر عليه شيء من ذلك عند جريان معصية عليه. ولذلك قال ﷺ: «لَمْ أَرْ مِثْلَ النَّارِ نَامَ هَارِبُهَا وَلَا مِثْلَ الْجَنَّةِ نَامَ طَالِبُهَا» (٢)، فالتحقيق في هذه الأمور عزيز جداً ولا غاية لهذه المقامات حتى ينال تمامها، ولكن لكل عبد منه حظ بحسب حاله إما ضعيف وإما قوي، فإذا قوي سمي صادقاً فيه، فمعرفة الله تعالى وتعظيمه والخوف منه لا نهاية لها.

ولذلك قال النبي ﷺ لجبريل عليه السلام: «أَحِبُّ أَنْ أَرَكَ فِي صُورَتِكَ الَّتِي هِيَ صُورَتُكَ» فقال لا تطيق ذلك قال: «بل أرني» فواعده البقيع في ليل مقمرة فاتاه فنظر النبي ﷺ فإذا هو به قد سد الأفق يعني جوانب السماء فوقع النبي مغشياً عليه فأفاق وقد عاد جبريل لصورته الأول، فقال النبي ﷺ: «ما ظننت أن أحداً من خلق الله هكذا» قال: وكيف لو رأيت إسرافيل؟ إن العرش لعلى كاهله، وإن رجليه قد مرقتا تحت تخوم الأرض السفلى وإنه ليتصاغر من عظمة الله حتى يصير كالورص (٣).

يعني كالعصفور الصغير، فانظر ما الذي يغشاه من العظمة والهيبة حتى يرجع إلى ذلك الحد؟ وسائر الملائكة ليسوا كذلك لتفاوتهم في المعرفة فهذا هو الصدق في التعظيم. وقال جابر قال رسول الله ﷺ: «مررت ليلة أسري بي وجبريل بالملأ الأعلى كالحلس

(١) حديث أبي ذر: سألت عن الإيمان فقرأ قوله تعالى ﴿وَلَكِنَّ الْآلِرَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [البقرة: ١٧٧] إلى قوله ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا﴾، رواه محمد بن نصر المروزي في تعظيم قدر الصلاة بأسانيد منقطعة لم أجد له إسناداً.

(٢) حديث «لم أر مثل النار نام هاربها ولا مثل الجنة نام طالبها». تقدم.

(٣) حديث: قال لجبريل: «أحب أن أراك في صورتك التي هي صورتك» فقال: لا تطيق ذلك. تقدم في كتاب الرجاء والخوف أخصر من هذا، والذي ثبت في الصحيح أنه رأى جبريل في صورته مرتين.

البالي من خشية الله تعالى»^(١). يعني الكساء الذي يلقي على ظهر البعير، وكذلك الصحابة كانوا خائفين وما كانوا بلغوا خوف رسول الله ﷺ، ولذلك قال ابن عمر رضي الله عنهما: لن تبلغ حقيقة الإيمان حتى تنظر الناس كلهم حمقى في دين الله. وقال مطرف: ما من الناس أحد إلا وهو أحمق فيما بينه وبين ربه إلا أن بعض الحمق أهون من بعض، وقال النبي ﷺ: «لَا يَبْلُغُ عَبْدٌ حَقِيقَةَ الْإِيمَانِ حَتَّى يَنْظُرَ إِلَى النَّاسِ كَالْأَبَاعِرِ فِي جَنْبِ اللَّهِ ثُمَّ يَرْجِعَ إِلَى نَفْسِهِ فَيَجِدُهَا أَحَقَرَ حَقِيرٍ»^(٢)، فالصادق إذن في جميع هذه المقامات عزيز. ثم درجات الصدق لا نهاية لها وقد يكون للعبد صدق في بعض الأمور دون بعض، فإن كان صادقاً في الجميع فهو الصديق حقاً. قال سعد بن معاذ: ثلاثة أنا فيهنّ قوي وفيما سواهنّ ضعيف؛ ما صليت صلاة منذ أسلمت فحدّثت نفسي حتى أفرغ منها، ولا شيعت جنازة فحدّثت نفسي ما هي قائلة وما هو مقول لها حتى يفرغ من دفنها، وما سمعت رسول الله ﷺ يقول قولاً إلا علمت أنه حق، فقال ابن المسيب: ما ظننت أنّ هذه الخصال تجتمع إلا في النبي عليه السلام. فهذا صدق في هذه الأمور، وكم قوم من جلة الصحابة قد أدوا الصلاة واتبعوا الجنائز ولم يبلغوا هذا المبلغ؟ فهذه هي درجات الصدق ومعانيه، والكلمات المأثورة عن المشايخ في حقيقة الصدق في الأغلب، لا تتعرض إلا لآحاد هذه المعاني نعم قد قال أبو بكر الوراق الصدق ثلاثة صدق التوحيد وصدق الطاعة وصدق المعرفة. فصدق التوحيد لعامة المؤمنين قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحديد: ١٩] وصدق الطاعة لأهل العلم والورع، وصدق المعرفة لأهل الولاية الذين هم أوتاد الأرض وكل هذا يدور على ما ذكرناه في الصدق السادس، ولكنه ذكر أقسام ما فيه الصدق وهو أيضاً غير محيط بجميع الأقسام وقال جعفر الصادق: الصدق هو المجاهدة وأن لا تختار على الله غيره كما لم يختار عليك غيرك فقال تعالى: ﴿هُوَ أَجْتَبَاكُمْ﴾ [الحج: ٧٨] وقيل: أوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام: إني إذا أحببت عبداً ابتليته ببلايا لا تقوم لها الجبال لأنظر كيف صدقه، فإن وجدته صابراً اتخذته ولياً وحبیباً، وإن وجدته جزوعاً يشكوني إلى خلقي خذلت ولا أبالي. فإذن من علامات الصدق كتمان المصائب والطاعات جميعاً وكراهة اطلاع الخلق عليها.

تم كتاب الصدق والإخلاص، يتلوه كتاب المراقبة والمحاسبة، والحمد لله.

(١) صحيح: حديث «مررت ليلة أسرى بي وجبريل بالملأ الأعلى كالحلس البالي من خشية الله تعالى». أخرجه محمد بن نصر في كتاب تعظيم قدر الصلاة والبيهقي في دلائل النبوة من حديث أنس وفيه الحارث بن عبيد الإيادي ضعفه الجمهور وقال البيهقي ورواه حماد بن سلمة عن أبي عمران الجوني عن محمد بن عمير بن عطارده وهذا مرسل، [انظر الصحيحة: ٢٢٨٩].

(٢) حديث «لا يبلغ عبد حقيقة الإيمان حتى ينظر إلى الناس كالأباعر في جنب الله ثم يرجع إلى نفسه فيجدها أحقر حقير». لم أجد له أصلاً في حديث مرفوع.